الأمام علي عليه السلام

في قوّتَيْهِ: الجَاذِبَة وَ الدَّافِعَة

تَأليف

الأسْتَاذ مُرتضَي المُطهّريْ

تَرجَمة

جَعْفَر صادِق الخليْليْ

مَؤَسّسةُ البِعثة

بيروت

جَميْع الحقُوق مَحفُوظَة و مُسَجَّلة للنَاشِر

الطبعة الأولي

1410 ه – 1990 م

الطبعة الثانية

1412 ه – 1992 م

مُؤسسة البعثة للطباعة و النشر و التوزيع

لبنان بيروت عمرة حريك – بناية غارون بالاس – ص پ : 8 / 24

بسم الله الرحمن الرحيم

ثمة أو موضوعات يعجب المرء من أنها معين لا ينضب:النبي الأكرم (ص) ، القرآن المجيد ، الإمام الوصي أبو الحسن (ع) ، نهج البلاغة، شهادة الحسين (ع)... الخ الخ ... موضوعات كُتبَ و يُكتب فيها و في مثيلاتها منذ قرون و ما تزال، و مع ذلك فأنت واجدٌ فيها دائماً ميداناً لقول، و محجالاً لجديد.

وضاح مقصودنا من هذا التمهيد للكتاب في الإمام علي (ع)، و هو أن أبا الأئمة شخصية فذة خارقة، تأتيها كلِ حين فتراها أقيانوساً بلا حدود في عمقه ، و في ساحله تجد فيضاً من الدرّ أو من الصيد بلا منتهي، و تؤوب من شاطئه و جرابك دائماً مليء، وشبكتك حبلي، و نفسك رضية ، و أنت بحبه و بالآنتساب إلي محبيه فخور. علي أن الموضوع الذي طرقه المؤلف المبدع العلامة الأستاذ الشيخ مرتضي مطهري الذي جمع إلي فخر مداد العلم فخر دم الشهادة ينم عن دقة في النظر،

و براعة في اصطياد الجوانب الثرية في شخصية الإمام ، فهو في هذا الموضوع البكر، يرينا الجوانب التي تدفعك في شخصية الأمير (ع) إلي كل ما هو خير و نبل و جمال، و الجوانب التي تنفرك من كل ما هو شر و حقارة و قبح ، و ليس أدل علي نجاح الموضوع و نجاح الكتاب من أن الكتاب نفد بسرعة.

و منهنا أن مؤسستنا التي تفتخر بحمل رسالة تعريف الإسلام و جمالاته إلي أوسع مديات المعمورة و بمعظم لغاتها الفاعلة الواسعة الآنتشار ، تشعر بالرضي بل السعادة حقاً لأن هذا الكتاب كان في منشوراتها الأولي في فرعها في لبنان ، و لأنها تبادر إلي أعادة طبعه بعد أمد قليل من طبعه الطبعة الأولي، آملة كما تتوقع أن يكون فيه مزيد خير في مزيد تعريف بأبي الأئمة الأطهار، و أن يكتب لنا الله بذلك الأجر الذي تأمل أن نكون أهلاً له، و هو المقصد أولاً و أخيراً، و به الرجاء و منه التوفيق!!

مؤسسة البعثة

بيروت

تقديم

إن شخصيتة الإمام علي (ع) العظيمة الرحبة لأوسع و أشمل من أن يستطيع فرد بمفرده أن يجول فيها بفكره ليحيط بها من جميع الجوانب و الأطراف. إن أقصي ما يستطيعه المرأ هو أن يقنع بتناول جانب واحد أو عدد محدود من جوانب شخصيته بالمطالعة و الدرس.

و من جوانب هذه الشخصية العظيمة ذلك الجانب الذي يكشف عن تأثيره في الناس تأثيراً موجباً أو سالباً. و بعبارة أخري هو ما في الإمام من قوة «الجذب و الدفع» الكبيرة التي ما زالت تعمل عملها حتي الآن ، و هي ما سوف يتناوله هذا الكتاب بالبحث.

من البديهيي أن يتباين الناس من حيث ما يثرونه من ردود الفعل عند الآخرين . و كلما كانت الشخصية أضعف كان

انشغال الآخرين بها أقل و ما تثيره في القلوب من التهيج و الإثارة أدني. و كلما كانت الشخصية أعظم و أقوي كانت أقدر علي استثارة المشاعر و إبراز ردود الفعل، سواء كانت مؤيدة أم مخالفة.

إن الشخصيات التي تثير الخواطر و تستدعي ردود الفعل تلهج بذكرها الألسنة كثيراً، و تكون موضوع جدل و نقاش و خصام، و تتخذ أغراضاً للشعر و الرسم و الفنون الأخري، و أبطالاً للروايات و القصص. هذه أمور نجدها كلها قد تحققت في حدودها العليا بشأن علي (ع) و لم ينافسه في ذلك أحد، أو نافسه أفراد معدودون.

يقال إن محمد بن شهر آشوب المازندراني – الذي كان من أكابر علماء الإمامية في القرن السابع – عندما أقدم علي تأليف كتابه المعروف «المناقب» كان في مكتبته ألف كتاب باسم «المناقب» كتبت كلها في علي (ع).

هذا نموذج واحد يدل علي مدي انشغال الخواطر بهذه الشخصية العظمية السامية علي امتداد التاريخ.

إن الميزة الرئيسة التي يمتاز بها علي عليه السلام و سائر الذي أضاءوا بنور الحق، هي أنهم – فضلاً عن اشغالهم الخواطر و الأفكار – كانوا يفيضون علي القلوب و الأرواح النور

و الحرارة و الحب و النشاط و الإيمان و الثبات.

إن فلاسفة مثل سقراط و أفلاطون و أرسطو و ابن سينا و ديكارت ما زالوا يستحوذون علي أفكار الناس و خواطرهم.

و إن قادة الثورات الاجتماعية – و علي الأخص في هذا القرن – أثاروا في مؤيديهم ضرباً من التعصب.

و رجال التصوف استطاعوا أن يحملوا أتباعهم علي الرضوخ لحالة «التسليم» بحيث لو أن «صاحب الحانة أو مأ لهم لصبغوا السجادة بالخمر»[1].

إلا أننا لا نري في أي من أولئك تلك الحرارة المصحوبة بالليونة و اللطافة و الصفاء و الرقة التي يدور فيها الكلام عل علي (ع) في التاريخ. فالصفويون الذين أنسأؤا من الدروايش جيشاً جراراً من المجاهدين ، إنما أنشأوه باسم علي لا بأسمائهم.

إن الحسن و الجمال المعنويين اللذين يخلقان المحبة و الخلوص ينشآن من مقولة واحدة. بينما السلطة و المنفعة و المصلحة الحياتية التي هي بضاعة الفلاسفة ، أو إثبات السلطنة و الاقتدار الذي هو بضاعة المتصوفة ... من مقولة أخري.

[1]. هذا تضمين لأحد أبيات الشاعر حافظ الشيرازي – المترجم.

لقد جاء أن أحد تلامذه ابن سينا كان يقول له : لو أنك بهذا الذكاء و الفهم الخارق للعادة ادعيت النبوة لالتف حولك الناس. إلا أن ابن سينا لم يكن يرد عليه بشيء . حتي جمعتهما سفرة في أيام شتاء. و عند الفجر من إحدي الليالي أيقظ ابن سينا تلميذه و طلب منه أن يأتيه بقليل من الماء لإرواء عطشه . فراح التلميذ يتعلل و ينحت الأعذار لكيلا يغادر فراشه الدافيء في تلك الليلة الباردة ارتفع صوت المؤذن من المئذنة (الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله) فاغتنم ابن سينا الفرصة و قال لتلميذه : ألم تكن تحرضني علي ادعاء النبوة و تقول: إن الناس سوف يؤمنون بي و يتبعونني؟ و لكنك - و أنت تلميذي منذ سنوات ، و قد استفدت من دروسي – لم يكن لي عليك ذلك النفوذ الذي يخرجك من فرشك دقائق معدودة لتأتيني بالماء. و لكن هذا المؤذن يصدع بأمر نبيه بعد أربعمائة سنة فينهض من نومه الهنيء و فراشه الدفي، ليصعد المئذنة ليشهد بوحدانية الله و برسالته محمد (ص)، فانظر ما أبعد الاختلاف!.

نعم ... إن الفلاسفة يصنعون التلاميذ لا الأتباع ، و القادة الاجتماعيون يصنعون الأتباع المتعصبين ، لا الناس المهذبين ، و أقطاب التصوف و مشايخ العرفان يصنعون المستسلمين، لا

المؤمنين المجاهدين النشطين.

و لكن في علي (ع) اجتمع فعل الفيلسوف، و فعل القائد الثوري، و فعل شيخ الطريقة ، و فعل يشبه فعل الأنبياء ... مدرسته مدرسة العقل و الفكر، و مدرسة الثورة ، و مدرسة التسليم و الانضباط، و مدرسة الحسن و الجمال و الانجذاب و الحركة.

إن علياً (ع) قبل أن يكون إماماً عادلاً للناس و يحكم بينهم بالعدي، كان إنساناً متعادلاً متوازناً في ذاته، يجمع فيها الكمالات الإنسانية كلها... كان إلي جانب عمق تفكيره و بعد نظره يتمته بمشاعر عاطفية رقيقة. جمع كمال الجسم إلي كمال النفس. كان في الليل ينقطع عن كل أمر للتعبد ، و في النهار ينشط في كل عمل اجتماعي. كانت عيون الناس تري منه في النهار التضحية و المواساة ، و تسمع منه آذانهم النصيحة و الموعظة و الحكمة . و في الليل كانت عيون الأنجم تري دموع تعبده، و تسمع آذان السماء مناجاته الوالهة. كان المفتي و الحكيم ، و كان الصوفي و القائد الاجتماعي، و كان الزاهد و الجندي، و كان القاضي و العامل، و كان

الإنسان الكامل بكل ما فيه من حسن و جمال.

هذا الكتاب يتألف من أربع محاضرات ألقيت في (حسينية

إرشاد) من 18 حتي 21 من شهر رمضان المبارك في سنة 1388 ه. و قد أقيم الكتاي علي مقدمة و فصلين:

في المقدمة جري بحث كلي بشأن الجذب و الدفع عموماً، أو بشأن جذب الإنسان و دفعه خصوصاً.

و في الفصل الأول يجري الكلام علي قوة جاذبية علي (ع) التي جذبت – و لم تزل تجذب – القلوب إليه ، و فلسفة ذلك، و فائدته و أثره.

و في الفصل الثاني نتناول قوة دفع الإمام (ع) و كيف كان يطرد بها بعض العناصر بكل مشقة. فقد ثبت أن علياً (ع) كان ذا قدرتين ، و أن علي من يرغب أن يتربي في مدرسته أن يكون ذا قدرتين أيضا.

و لما لم يكن يكفي أن يكون المرء مزدوج القدرة فحسب لكي ينتمي إلي مدرسة الإمام علي (ع)، فقد سعينا جهدنا في هذا الكتاب أن نبين من أي طراز هم أولئك الذين تجذبهم قوة جاذبية الإمام، وأي نوع من الناس تطردهم قوة دفعه. و ما اكثر الذين يدّعون أنهم من أتباع مدرسته و لكنهم يعملون علي دفع الذين كان علي (ع) يجذبهم، و جذب الذين كان يدفعهم.

عند الكلام علي قوة دفع علي (ع) اكتفينا ببحث ظاهرة الخوارج، علي الرغم من وجود طبقات أخري تشملهم قوة دفع

علي (ع)، و لعلنا نوفق إلي معالجة هذا التقصير مثل غيره مما فيهذا الكتاب، في وقت آخر، أو في الطبعه الأخري لهذا الكتاب.

لقد تحمل متعب اصلاح هذه المحاضرات و اكمالها الأخ الفاضل حضرة فتح الله لاأميدي، فنصف الكتاب بقلمه، فيعد أن نقله من أشرطة التسجيل علي الورق، عاد فكتبه بقلمه أو أصلحه و أكمله . أما النصف الآخر فقد أمليته بنفسي، أو قمت بإضافة بعض الأمور بعد أن قام الأخ الفاضل بإعداده و إصلاحه – و إني لأرجو أن يكون للكتاب بمجموعة أثر تعليمي نافع ، سائلاً الله تعالي أن يجعلنا من أتباع علي (ع) الحقيقيين.

مرتضي مطهري

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (سورة التوبة : الآية 71).

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمَعْرُوفِ) (سورة التوبة الآية 67).

المقدمة

- قانون الجذب و الدفع.
- الجذب و الدفع في عالم الإنسان.
- اختلاف الناس في الجذب و الدفع.
- عليّ – الشخصية ذات القوتين.

قانون الجذب و الدفع

قانون الجذب و الدفع قانون عام يسود سائر أجزاء نظام الخلق. فالعلوم المعاصرة تري أن كل ذرة من ذرات عالم الوجود تقع ضمن دائرة حكم الجاذبية العامة و لا تخرج عنه ذرة واحدة. فالأجسام – أكبرها و أصغرها – تملك هذه الطاقة الغامضة التي تسمي الجاذبية – أو قوة الجذب – و تقع تحت تأثيرها أيضاً.

لم يكتشف الإنسان في عهوده السابقة قانون الجاذبية العام في العالم، و لكنه عرف بوجود هذه الحالة في بعض الأجسام.

و كان يري في بعضها نماذج لذلك، مثل المغناطيس و الكهرباء . و مع ذلك فهو لم يعرف مدي تأثير جذبها علي جميع الأجسام ، بل أدراك علاقة الجذب التي تربط – مثلاً – بين المغناطيس و الحديد ، أو بين الكهرباء و القش.

فإذا تغاضينا عن كل ذلك، نجد أنهم لم يقولوا بوجوه هذه

الطاقة في سائر الأشياء ، سوي الأرض التي فسروا وقوفها في ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

متساوية، و لذلك فهي معلقة في الفضاء من غير آن تميل إلي جهة من الجهات . و كان بعضهم يعتقدون أن السماء لا تجذب الأرض بل تدفعها ، و لكون قوة الدفع تصل إلي الأرض من جميع الجهات بمقادير متساوية، فإنها تظل ساكنة في نقطة معينة و لا تغير مكانها.

الجميع يقولون – أيضاً بوجود قوة الجذب و الدفع في النباتات و الحيوانات ، و ذلك يعني عندهم أنها تملك القوي الأصلية الثلاث. قوة التغذية ، و قوة النمو ، و قوة التوالد. و كانوا يقولون بأن لقوة التغذية فروعاً أخري، مثل القوي الجاذبة و الدافعة و الهاضمة و الماسكة. و أن في المعدة قوة جاذبة تجذب الغذاء، و إذا لم تجد الغذاء مناسباً دفعته بعيداً. و أن في الكبد قوة جاذبة إليه الماء[2].

[2]. أما اليوم فيعتبرون بنية الجسم كالماكنة، و يرون عملية الدفع كعمل المضخة.

الجذب و الدفع في عالم الإنسان

ليس المقصود من الجذب و الدفع هنا ذلك الجذب و الدفع الجنسي، و إن يكن هذ – أيضاً – ضرب من الجذب و الدفع الذي يعتبر موضوعاً قائماً بذاته ، إنما المقصود هو ذاك الجذب و الدفع اللذان يقعان بين الناس في الحياة الاجتماعية. و لا نعني بذلك التعاون القائم بين الناس علي تبادل المنافع ، فهذا – أيضاً – ليس موضوع بحثنا.

إن جانباً كبيراً من الصداقة و المحبة ، أو من العداء و الكره ، يعتبر من مظاهر جذب الإنسان و دفعه. و هو قائم علي أساس من التماثل و التشابه ، أو علي أساس من التضاد و التنافر. و في الواقع ينبغي البحث عن أسباب الجذب و الدفع في السنخية و التنافر، مثلما يقال في الفلسفة: إن التماثل علة الانضمام .

قد نلاحظ شخصين ينجذب أحدهما للآخر ، و يحبان أن

يبقيا معاً صديقين. إن لهذا دلالته ، و هي ليس إلا التماثل ، إذ لولا وجود التشابه بينها لما انجذب أحدهما الي الآخر و لما رغبا في أن يكونا رفيقين . و عليه ، فإن التقارب بينهما دليل علي أن هناك ضرب من التشابه و التماثل بينهما.

في الكتاب الثاني من المثنوي حكاية طريفة:

رأي حكيم غراباً و لقلقاً قد عقدا بينهما عهد صداقة، فيحطان معاً و يطيران معاً! هذان الطائران ، من نوعين مختلفين ، فالغراب ... لا لونه و لا شكله يشابهان اللقلق، فأخذه العجب: لماذا الغراب و اللقلق؟! فاقترب منهما فرأي أنهم أعرجان.

إن اشتراك هذين النوعين المختلفين من الطيور في هذه العاهة هو الذي جعل أحدهما يأنس بالآخر. كذلك الإنسان لا يألف إنساناً آخر بغير علة، و لا هو يعاديه بغير علة أيضاً.

يري بعضهم أن أصل هذا الجذب و الدفع هو الحاجة و رفع الحاجة . الإنسان كائن محتاج ، فقد خلق محتاجاً، فيسعي بمحاولاته لكي يملأ فراغاته و يسد حاجاته . إلا أن هذا غير ممكن ما لم ينضم إلي جماعة و يبتعد عن جماعة ، فينتفع بهذا الانضمام من جماعة ، و يدرأ عن نفسه ضرر جماعة أخري، فلست تري فيه نزوعاً و لا عزوفاً إلا و هو نابع من مصلحته.

و عليه فإن الضرورات الحياتية – و بناءه الفطري – قد أوجدت فيه قوتي الجذب و الدفع لكي يلتئم مع ما يحس فيه بالمنفعة، و يبتعد عما لا يجد في نفسه ميلاً إليه... و أن يظل عديم الإحساس إزاء ما هو ليس من ذلك، فلا هو بنافع و لا هو بضار.

في الحقيقة ، إن الجذب و الدفع من الأركان الأساسية في حياة الإنسان ، و بقدر إصابتهما بالضعف يصاب نظام حياته بالخلل، و من كانت له القدرة علي ملء الفراغات استطاع أن يجذب الآخرين نحوه. أما الذي هو فضلاً عن كونه لا يستطيع ملء الفراغات ، بل يزيد من عددها ، فإنه يدفع الناس و يبعدهم عنه، و كذلك اللاأباليون.

اختلاف الناس في اجذب و الدفع

إن الأفراد ليسوا متساوين من حيث فواهم الجاذبة و الدافعة بالنسبة للآخرين ، و يمكن تصنيفهم إلي عدة أصناف:

1- صنف لا جذب فيهم و لا دفع. لا يحبهم أحد ولا يبغضهم أحد، فلا هم يستثيرون حب أخد و ميله إليهم و لا عدواته أو حسده و حقده و نفوره . يمشون بين الناس لا يبالون بشيء ، فهم أشبه بقطعة حجر تتحرك بين الناس.

و هذا كائن مهمل و لا أثر له. إن امرءاً ليس فيه أي تأثير إيجابي (ليس المقصود بالإيجابي الفضيلة وحدها، بل الرذيلة مقصودة أيضاً) ليس سوي حيوان يأكل و ينام و يتحرك بين الناسة إنه كالشاة التي لا تحب أحداً و لا تعادي أحداً، فإذا ما عني بها من حيث تقديم العلف و الماء كان ذلك لكي يستفاد من بحمها. إنه لا يثير موجة تأييد و لا موجة معارضة ... هذا و أمثاله

صنف يمثل كائنات لا قيمة لها، قشوراً فارغة، فالإنسان يريد ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

يعادي أيضاً.

2 – و هناك من يملك قوة الجذب و لكنه يفتقر إلي قوة الدفع. إنه يأتلف مع الجميع و يحتضنهم جميعاً و يحمل الناس من مختلف الطبقات علي التعلق به. إنه محبوب الجميع في المجتمع و لا يستنكره أحد. و إن مات غسله المسلمون بماء زمزم ان كان مسلماً، و أحرق جسده إن كان هندوسياً. يثول الشاعر الفارسي ما ترجمته:

(كن حسن الخلق – يا عرفي – مع الصالح والطالح ، فعند موتك يغسلك المسلمون بماء زمزم و يحرق الهندوس جسدك)[3].

فهذا الشاعر يري أنك إن عشت في مجتمع مصفه مم المسلمين الذين يغسلون موتاهم ، و إن احترموهم فيغسلوهم بماء زمزم، و نصفه الآخر من الهندوس الذين يحرقون موتاهم

[3]. عرفي شاعر إيراني عاش في القرن العاشر كان يختلف إلي لاط الامبراطور أكبر في الهند.

و يذرون رماد أجسادهم في الريح ، فعليك أن تتخلق بأخلاق يراك فيها المسلمون واحداً منهم فيهرعون لغسلك بماء زمزم عند موتك ، و يراك فيها الهندوس واحداً منهم فيغسون لحرق جسدك بعد موتك احتراماً لك.

يري الناس – في الأعم الأغلب – أن حسن الخلق و طيب المعاشرة، أو بحسب التعبير المعاصر «أن يكون المرء اجتماعياً» هو أن يفوز المرء بحب الجميع.

إلا أن هذا غي ممكن للشخص الذي يعمل من أجل هدف معين و يسير في المجتمع بحسب سلوك معين، و وفق فكرة خاصة، و يتطلع إلي مثال بعينه ، و ليس همه السعي وراء منفعته الذاتية. إن إنساناً هذا شأنه لابد أن يكون ذا وجه واحد حاسماً وصريحاً، شاء ذلك أم أبي ، ما لم يكن منافقاً مزدوج الشخصية.

و ذلك لأن الناس لا يفكرون بطريقة واحدة، و لا يتشابهون في مشاعرهم ، و لا في رغباتهم و أهوائهم ... إن فيهم العادل، و فيهم الظالم. فيهم الصالح ، و فيهم الطالح ، ككا أن في المجتمع المنصف، و المتعدي ، و العادي، و الفاسق. فليس من الممكن أن يجتمع هؤلاء علي حب شخص بعينه ، و هو يسعي للوصول إلي هدف لا ستهوي الجميع فيصطدم – حتماً -

مع مصالح بعض دون بعض.

إن الشخص الوحيد القادر علي جذب حب الناس جميعا – علي اختلاف طبقاتهم و مثلهم و اتجاهاتهم – هو المرائي الكذال الذي يظهر لكل شخص ما يحب أن يسمع و يري.

أما إذا كان المرء ذا وجه واحد و سلوك واحد، فلا شك في أن جمعاً من الناس سيكونون من أصدقائه ، بينما سوف يعاديه جمع آخر. فالذين يتجهون وجهته سينجذبون إليه، و الذين يختلفون معه في وجهة نظره سوف يطردونه و يحاربونه.

بعض المسيحين الذين يقولون عن أنفهسم و عن دينهم: إنهم يبشرون بالمحبة، يزعمون أن الإنسان الكامل لا يملك سوي المنحبة، و لا شي غيرها. أي إن فيهم قوة الجذب فقط. و لعل بعض الهندوس يدعي الشيء نفسه.

إن ما يلفت النظر كثيراً في الفلسفات المسيحية و الهندية هو المحبة . إنهم يقولون : إن علي المرء إن يميل إلي كل شيء و أن يظهر حبه له. فإذا نحن أحببنا الجميع لا يكون هناك ما يمنع من أن يحبنا الجميع، بما فيهم الأشرار الذين لم يروا منا غير الحب.

إلا أن علي هؤلاء أن يدركوا أن مجرد كون المرء من أهل

المبحة لا يكفي، إذ عليه أن يكون ذا مسلك أيضاً. و قول غاندي «هذا هو مذهبي» يعني أن المحبة يجب أن تصاحب الحقيقة، فإذا صاحبت الحقيقة، لابد أن تكون وفق سلوك معين، و كونك ذا سلوك معين سوف خلق لك الأعداء شئت أم أبيت ، و هذا في الواقع هو قوة الدفع التي تحمل عدداً من الناس علي الاعتراض و المعارضة و تطردد عدداً آخر.

الإسلام – أيضاً – قانون المحبة، و هذ القرآن يقدم النبي الكريم (ص) علي أنه رحمة للعالمين:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ)[4].

أي إنك رحمة حتي علي أعدي أعائك[5].

بيد أن الحب الذي يقول به القرآن لا يعني أن نعامل كل

[4]. سورة الأنبياء ، الآية 107.

[5]. بل لقد شمل حبه كل شيء، حتي الحيوانات و الجمادات ، لذلك نري فيه سيرته أن لكل ممثلكاته أسماء خاصة بها: خيوله و سيوفه و عمائمه إلخ. و إن دل هذا علي شيء فإنما يدل علي وجود علاقة بينه و بين الكائنات الأخري و هي كلها موضع حبه، و كأنه كان يري لكل شيء شخصية قائمة بذاتها . إن التاريخ لا يذكر عن وجود مثل هذا السلوك في شخص آخر. و الحقيقة أن هذا السلوك يحكي عن كوته كان رمز الحب و المحبة الإنسانية. مرّ يوماً بجبل أحد فنظر إليه بعينيه المشعتين المليئتين بالمحبة و قال : «حبل يحبنا و نحبه». هذا إنسان يفيض حبه حتي علي الحجر و الجبل.

شخص علي وفق هواه و رغبته ، فلا نفعل إلا ما يحوز رضاه و يحذبه حتماً نحونا ليست المحبة أن نترك كل امريء حراً فيما يشاء و يهوي و نؤيده في ذلك. ليس هذا من المحبة في شيء ، بل هو النفاق و الازدواجية.

المحبة تصاحب الحق و توصل الخير ، بل قد يكون إيصال الخير بطريقة لا تستجلب رضا الطرف الآخر و محبته. و ما أكثر الذين يوصل الإنسان لهم الخير عن هذا الطريق، إلا أنهم إذ يرونه يخالف رغباتهم يعاونه بدل أن يحبوه.

ثم إن المحبة المنطقية و العقلائية هي التي يكون فيها خبر المجتمع وصلاحه ، لا خير فرد واحد، أو طبقة بعينها. فكثير من المحبة التي تولي للأفراد و الخير الذي يوصل إليهم يكون سبباً في إيصال الشر و الضر إلي المجتمع.

في التاريخ مصلحون عظام سعوا إلي إصلاح شؤون المجتمع و تحملوا في سبيل أنواع العذاب ، و لكنهم لقاء ذلك لم يجدوا من الناس سوي الإيذاء و الحقد.

و عليه فالمحبة لا تعني الجذب دائماً، فقد تظهر المحبة أحياناً بصورة قوة دافعة عظيمة تثير الجماعات ضد الإنسان .

كان عبد الرحمن بن ملجم المرادي من أعدي أعداء علي

(ع) و كان علي علي عالم تام بما يحمله له هذا الإنسان من عداء و خطر ، و كان بعض أصحاب علي (ع) يقولون له، أيضاً، إنه إنسان خطر، فتخلص منه. إلا إن علياً كان يقول: أقصاص قبل الجناية؟ إذا كان هذا قاتلي ، فإني لا أستطيع إن أقتله . إنه هو قاتلي و لست أنا قاتله . و لقد قال عنه يوماً: «أريد حياته و يريد قتلي»[6] فأنا أتمني أن يبقي حياً، و أحب أن يكون سعيداً، و لكنه يريد قتلي... إنني أكن له المحبة و لاود ، و هو يكن لي العاوادة و الحقد.

ثم إن المحبة وحدها لا تكون دواء لعلاج البشر، ففي بعض الألسنة و الأمزجة لابد من شيء من الخشونة و المحاربة و الدفع و الطرد. الإسلام دين جذب و محبة ، كما هو دين دفع و نقمة[7]؟

---

[6]. بحار الأنوار ، الطبعة الحديثة ، ج 42 ص 192 و 194.

[7]. يمكن القول بأن النقمة – أيضاً – مظهر من مظاهر المحبة. فنحن نقرأ في الدعاء : «يا من سبقت رحمته غضبه» أي إنك إذ شئت الرحمة عضبت ، فلولا رحمتك و محبتك ما غضبت. كالأدب الذي يغضب علي ابنه لأنه يحبه و يتطله إلي مستقبله . فهو يغضب إذا رآه ارتكب جرماً، و قد يعاقبه ، و لكنه قد لا يهتم كثراً إذا رأي أبناء الآخرين يرتكبون الجرم نفسه. لقد غضب علي ابنه لأنه يحبه، و لم يغضب علي الآخرين لأنه لا يحبهم.
و لكن قد تكون بعض العواطف كاذبة، أي إنها مجرد أحاسيس لا يتخكم فيها العقل . و قد جاء في القرآن الكريم:(ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله(24 / 2) و ذلك لأن الإسلام يعني بالأفراد كما يعني بالمجتمع . و لقد قال الإمام علي (ع): «أشد الذنوب ما استهان به صاحبه»(نهج البلاغه : ح 340)إن شيوع الذنوب هو الذي يسط أهميتها من الأعين و يظهرها تافهة في نظر المرء. لذلك يقول الإسلام إنه إذا ارتكب ذنب و لم يكن ذلك في خفاء كامل بحيث أن بعضهم اطلع عليه، فينبغي أن ينال المذنب عقابه من حد أو تعزير، فقد جاء في الفقه الإسلامي عموماً أن ترك أي واجب و اقتراف أي محرم – إذا لم بكن له حد معين – يستوجب التعزير (و التعزير عقاب أدني من الحد يقرره القاضي). فعند ارتكاب أحدهم ذنباً و إشاعته يقترب المجتمع خطوة نحو الإثم ، و هذا من أخطر الأمور علي المجتمع . لذلك يجب أن يعاقب المذنب عقاباً يتناسب و جرمه، لكي يعود المجتمع إلي طريقه السوي، و لا تسقط أهمية الذنوب من عينه.
و عليه فإن النقمة و العقاب ضرب من المحبة نحو المجتمع .

3 – و هناك من يملك القوة الدافعة دون القوة الجاذبة. إنه يصنع الأعداء و لا يصنع الأصدقاء. هولاء اناس ؟؟ أيضا.

و هذا دليل علي أنه يفتقر إلي الخصال الإنسانية الإيجابية . إذ لو كان متمعاًبجميع الخصال الإنسانية ، لوجدنا له ولو عدداً ضئيلاً من المحبين و الأصدقاء. فالمجتمع لا يخلو من الناس الطيبين ، و إن قل عددهم. و لو كان جميع الناس فاسدين ظالمين لكانت هذه العداوات دليل الحق و العدالة. و لكن الناس ليسوا كلهم رديئين دائماً و ليسوا كلهم طيبين دائماً. لذلك لا شك في أن الشخص الذي يجد كل الناس أعداءً له، إنما

يكون هو السبب في ذلك، إذ كيف يمكن أن توجد في إنسان خصال طيبة، ثم لا نجد له صديقاً و لا محباً واحداً؟ إن أمثال هؤلاء تخلو شخصياتهم من الخصال الإيجابية، فهم حتي في خصالهم لا يستسغيهم أحد. إنهم كالمرارة في الأفواه، لا يخالطها شيء من الحلاوة أبداً.

يقول الإمام علي (ع):

«أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان ، و أعجز منه من ضيع من ظفر به منهم».[8]

4 – و هناك الذين وهبوا القوتين الجاذبة و الدافعة. أناس لهم مسيرة خاصة، و هم نشطون في اتباع عقيدتهم و مسلكهم ، فيجذبون جماعات نحوهم، و يدخلون القلوب محبوبين ، كما يدفعون عنهم جماعات أخري و يطردونهم . إنهم يصنعون الأصدقا و يصنعون الأعداء. يربون المؤدين و يربون المعاندين.

تري كيف هم هؤلاء؟ إن قوتي الجذب و الدفع قد تكونان شديدتين ، و قد تكونان ضعيفتين ، و قد تكونان متباينتين.

إن الذين لهم شخصيات قوية هم الذين قويت فيهم قوتا

[8]. نهج البلاغة: الحكلة 11.

الجذب و الدفع، و هذا يعتمد علي مدي قوة الأسس الموجبة و السالبة في أرواحهم. لاشك في أن للقوة درجات و مراتب بحيث أنها قد تصل أحياناً بالمحبين المجذوبين إلي أن يضحوا بأنفسهم في سبيل من اجتذبهم إليه، كما قد يصل الأمر بالأعداء المبغضين إلي حيث يضحون بدمائهم علي مذبح عدائهم . و قد تشتد تلك القوة بحيث أنها تمتد حتي إلي ما بعد موت صاحبها، فيبقس أثر جذبه و دفعه قروناً عديدة فاعلاً في النفوس و يشمب ساحة واسعة جداً. إن هذا الجذب و الدفع ذا الأبعاد الثلاثة يختص به الأولياء، مثلما أن الرسلات ذوات الأبعاد الثلاثة يختص بها الأنبياء[9].

ثم ينبغي علينا أن نتعرف علي الذين يجذبونهم و علي الذين يدفعونهم، فمثلاً، قد نراهم أحياناً يجذبون ذوي العقول و يطردون الجهلاء، و قد يكون الأمر معكوساً. و قد يجذبون العناصر الشريفة النجيبة و يدفعون العناصر الدنيئة الخبيثة ، و قد يكون العكس. و لذلك فإن محبي كل امريء و مبغضيه يعتبرون دليلاً قاطعاً ماهية ذلك الشخص.

إن مجرد امتلاك المرء لقوتي الجذب و الدفع، حتي و إن

[9]. أنظر مقدمة الجزء الأول من كتابنا «خاتم الأنبياء» ص 11 و 12.

كانتا شديدتين ، لا يكفي لاعتباره جديراً بالمدح و الثناء، و إنما تتحقق الجدارة بأصل شخصيته. و شخصيته المرء لا تكون دليلاً علي طيب طينه. إن جميع قادة الدنيا و زعمائها ، حتي المجرمين المحترفين منهم، مثل جنكيز خان و الحجاج و معاوية ، كانوا أشخاصاً من ذوي القوي الجاذبة و الدافعة. فلولا وجود نقاط إيجابية في نفس شخص ما لا يمكنه أن يجعل الآلاف من الجنود طوع أمره و إرادته . و لو لا وجود روح قيادية في المرء لما كان بإمكانه أن يجتمع جموع الناس من حوله.

كان نادرشاه من هؤلاء ... ما أكثر الرؤوس التي أطاح و العيون التي سحلها ! إلا أن شخصيته كانت قوية جداً. فقد أخراج إيران المندحرة في أواخر العهد الصفوي من حالتها المتدهورة باجتدابه الجيوش الجرارة حول قيادته – كما يجذب المغناطيس برادة الحديد - و تكوين جيش لجب لم يحرر البلاد من نيز الدخلاء فحسب، بل طاردهم حتي أقصي نقاط الهند، مضيقاً أراضي جديدة إلي الآرض الإيرانية.

و عليه فإن كل شخصية تجتذب إليها مثيلاتها، و تطرد عنها من لا يماثلها . فالشخصية العادلة المحبة للخير، تجتذب شخصيات عادلة محبة للخير مثلها ، و تطرد عباد الهوي و المال و المنافقين . و الشخصية المجرمة تجذب المجرمين حولها و تبعد الصلحاء عنها.

و الاختلاف الآخر – كما قلنا – هو التباين في درجة قوة الجذب . فمثلما هو يقولون عن قانون جاذبية ؟؟؟ إنها تتناسب طردياً مع كتلة الجسم و قصر المسافة مع الأرض، كذلك ... الأمر مختلف في الأشخاص من حيث قوة جذبهم للآخرين.

علي – شخصيتة ذات قوتين

علي (ع) من الرجال الذين يمتلكون القوتين الجاذبة و الدافعة ، و كلتا القوتين أشد ما تكونان فيه. و لعلنا لا نعثر علي مدي القرون و العصور من بلغت فيه هاتان القوتان شدتهما ف يعلي (ع). فأتباعه من أعجب الأتباع: تاريخيون ، مضحون ، صابرون ، يلتهبون حباً به كبيدر مشتعل، و يشعون ضياء ، يرون التضحية بأرواحهم في سبيله أمنية و فخراً، ينسون كل شيء في غمرة حبهم له. لقد مضت علي موت علي (ع) قرون ، و ما زالت جاذبيته تشه و تتلألأ، فتنجذب إليها العيون حيري و الهة.

في حياته تمحورت عناصر شريفة ، و نجيبة، تعبد الله، مضحية، لا يداخلها الطمع ، أناس صابرون ، رحماء ، عادلون ، يخدمون الناس ، لكل واحد منهم تاريخ عبرة.

و بعد موته ، في خلافة معاوية و الأمويين ، عذبت جماعات ؟؟؟؟؟؟؟؟ خطوة واحدة علي عقابها عن حبه، بل صمدت حتي الموت.

سائر شخصيات العالم يموت كل شيء عنهم بموتهم و يختفي مع أجسادهم تحت التراب. غير أن رجال الحقيقة يموتون و تبقي مدارس أفكارهم و يظل الحب الذي أشعلوا فتيلة سراجه علي مر الدهور يزداد تلألؤاً و إشراقاً.

إننا نقرأ في التاريخ أنه بعد مضي قرون علي وفاة علي (ع)ما يزال هناك أشخاص يستقبلون سهام أعدائه بصدورهم.

نقرأ، فيما نقرأ عن عشاق عليّ و المتجذبين إليه، عن ميثم التمار، الذي راح يتحدث عن فضائله و سجاياه الإنسانية، و هو علي أعواد المشنقة. ففي ذلك العهد الذي غرقت فيه البلاد الإسلامية من أقصاها إلي أدناها في بحر من الكبت و التضييق ، حيث أُهدرت الحريات و خنقت الأنفاس في الصدور، وران صمت كصمت القبور علي الملامح و الوجوه ، أخذ هو (ميثم) من أعلي المشنقة ينادي بأعلي صوته. تعالوا أحدثكم عن علي. فهجم الناس من جميع الأطراف يريدون أن يسمعوا حديث ميثم. و إذ تري الحكومة الأموية أن مصالحها في خطر، تأمر بإلجام فمه، و بعد أيام تقتله.

إن تواريخ أمثال هؤلاء العشاق يدور كثيراً حول عليّ.

هذا الجذب لا يختص بعصر دون عصر، ففي جميع العصور تجد من هذا الجذب الطاغي الذي فعل فعله العميق.

هنالك شخص باسم (ابن السكيّت) من كبار علماء العرب و أدبائهم ، وما يزال اسمه يتردد كلما تردد اسم سبيويه و أضرابه.

عاش هذا الرجل في عصر الخليفة المتوكل العباسي. و كان متهماً بالتشيع لعليّ بعد موت عليّ بمائتي سنة، و لكن لفضله وسعة علمه اتخذه المتوكل معلماً لولديه ... في أحد الأيام دخل علي المتوكل ولداه بحضور ابن السكيت ، فأبدي المتوكل رضاه عنهما لتفوقهما في أداء الامتحان ، و خطر له – استناداً إلي ما كان يشاع عن ابن السكيت من تشيع لعليّ – أن يسأله:

أتراك تحب ولدي هذين أكثر أم الحسنين ولدي عليّ؟

فاستفزت هده المقارنة ابن السكيت فغضب لها أشد الغضب ، و قال في نفسه : أبلغت الجرأة بهذا المغرور أن يقارن ولديه بالحسنين؟! إنني أنا المقصر لكوني قبلت تعليمها. ثم قال للمتوكل:

«و الله ان قنبر مولي علي لأحب إلي مرات من هذين و أبيهما».

فغضب المتوكل، و أمر به فقطعوا لسانه من أصله.

ان التاريخ يعرف الكثيرين ممن لا شهرة لهم ضحّوا بأرواحهم في سبيل حب علي (ع) .. فأين تجده هذه الجاذبية في العالم ؟ لا أحسب أن لها شبيهاً.

و إن لعليّ كذلك من الأعداء من ينقلب حاله عند سماع اسمه. لقد مضي عليّ كفرد، و بقي كمدرسة تجتذب إليها جماعات و تطرد عنها جماعات.

نعم، عليّ هو الشخصية ذات القوتين!

(1)

قوة جاذبة عليّ

- الجواذب القوية.
- التشيع مدرسة المحبة و العشق.
- إكسير المحبة.
- تحطيم الحدود.
- الحب بنّاء أم مخرب؟
- حب الأولياء.
- قوة الحب في المجتمع.
- الوسيلة الفضلي لتهذيب النفس.
- نماذج من التاريخ الإسلامي.
- دور قوة المحبة في تقدم الإسلام.
- حب عليّ في القرآن و السنّة.
- سر حبّ علي.

الجواذب القوية

جاء في مقدمة الجزء الأول من «خاتم الأنبياء» و بشأن «الرسالات» ما يلي:

«إن الرسالات التي ظهرت بين الناس لم تكن علي منوال واحد، كما لم يكن شعاع تأثيرها مستاوياً.

بعض الدعوات و الأنظمة الفكرية كان ذا بعد واحد، تقدم باتجاه واحد، و قد عم في بداية ظهوره شرائح واسعة من الناس و يتبعه الملايين منهم. و لكن ما ان انتهي زمانه حتي طوي بساط وجوده و أسلم إلي النسيان.

و بعض آخز كان ذا بعدين، بعث شعاعه إلي اتجاهين، و شمل طبقات واسعة من الناس و تقدم في عصور عديدة ، و لم يقتصر علي البعد المكاني بل تعداه إلي البعد الزماني أيضاً.

وثمة دعوة تقدمت في اتجاهات مختلفة ، و ضمت جماعات

من البشر واسعة تحت نفوذها ، بحيث أننا نري آثارها في كل قاة من القارات، و كان لها بعد زماني أيضاً، أي إنها لم تكن خاصة بزمان و عصر معينين، بل حكمت بكل اقتدار خلال قرون طويلة ، و تعمقت جذورها في دخائل النفوس و استولت علي ضمائر الناس و هيمنت علي قلوبهم و أمسكت بزمام مشاعرهم. إن دعوات كهذه هي الدعوات ذوات الأبعاد الثلاثة التي اضطلع بها الأنبياء.

فأين يمكن العثور علي مدرسة فكرية و فلسفية استطاعت – مثل الأيان العظيمة – أن تحكم ملايين الناس مدة ثلاثين قرناً أو عشرين قرناً أو أربعة عشر قرناً كحد أدني ، و أن تستولي علي جماع مشاعر أتباعها و ما في أعماقهم؟».

كذلك هي القوة الجاذبة ، فبعض ذات بعد واحد ، و بعض ذات بعدين ، و بعض ذات ثلاثة أبعاد.

جاذبة علي من النوع الأخير، فهي قد جذبت مجاميع واسعة من البشر، و ليست مقصورة علي قرن واحد أو قرنين اثنين، بل استمرت خلال القرون الماضية كلها و استمرت... إنها حقيقة ما زالت تتلألأ علي ملامح القرون و العصور، و قد غارت حتي أعماق القلوب، بحيث أن الناس بعد قرون إذا ذكروه و ذكروا أخلاقه و سجاياه انهمرت دموع الشوق من عيونهم

و بكوا علي مصائبه ، الأمر الذي أثر حتي في نفوس الأعادء و استذرف دموعهم. و هذه أشد الجاذبات قوة.
من هنا يمكن أن ندرك أن صلة الإنسان بالدين ليست من الصلات المادية ، بل هي ارتباط مختلف لا يشبه أي ارتباط بين الإنسان و بين أي شيء آخر.
و لم لم يصطبغ علي بصغة الله و لم يكن من رجال الله لكان قد طواه النسيان . إن في تاريخ البشر أبطالاً كثيرين: أبطالاً في القول، و أبطالاً في العلم و الفلسفة ، و أبطالاً في القوة و السلطة ، و أبطالاً في ميادين الحروب... و لكن الإنسان قد نسيهم جميعاً، أو أنه لم يعرفهم أصلا. غير أن علياً لم يمت بموته و إنما زاداد حياة – إن صح التعبير – هو نفسه يقول:
«هلك خزان الأموال و هم أحياء و العلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم نفقودة و أمثالهم في القلوب موجودة»[10].
و يثول عن نفسه :
«غداً ترون أيامي، و يكشف لكم عن سرائري، و تعرفونني بعد خلو مكاني، و قيام غيري مقامي»[11].

[10]. نهج البلاغة، الحكمة 139.
[11]المصدر نفسه ، الحكمة 149.

في الحقيقة، علي أشبه بقوانين الفطرة التي تظل خالية أبداً. إنه منبع فياض لا ينضب ، بل يزداد فيضه علي مر الأيام . و هو – كما يقول عنه جبران خليل جبران :
«شخصية ولدت قبل زمانها»
بعض الناس يصل إلي مركز القيادة في زمانه ، و بعض يستمر في قيادته قليلاً بعد زمانه حتي ينساه الناس. أما عليّ، و بعض آخرون من الناس، فهم من الهداة و القادة دائماً و أبدا.

التشيع مدرسة المحبة و العشق

من أهم ميزات الشيعة علي سائر المذاهب الأخري هو أن أساس مذهبهم المحبة . فمنذ عهد النبي الذي وضع فيه حجر الأساس لهذا المذهب، كان الكلام يدور علي المحبة و الموالاة، حتي أننا إذ نسمع النبي الكريم (ص) يقول: «علي و شيعته الفائزون»[12] نجد جمعاً من الناس قد تحلقوا حول علي و قد جذبهم إليه و استغرقهم حباً. و لهذا تري التشيع مذهب الحب و الوله. إن لعنصر المحبة في التشيع أهمية

[12]. ينقل جلال الدين السيوطي في (الدر المنثور) في شرح الآية السابقة من سورة البينة، عن ابن عساكر عن جابر بن عبدالله الأنصاري قوله :«كنت في حضرة النبي (ص) إذ دخل علي ، فقال (ص): «و الذي نفسي بيده ، إن هذا و شيعته هم الفائزون يوم القيامة». وقد ورد مضمون هذا الحديث بأسلوب آخر في (كنوز الحقائق) للمناوي في روايتين ، و في (مجمع الزوائد) للهيثمي، و في (الصواعق المحرق) لابن حجر.

كبيرة ، و تاريخ التشيع يقترن بأسماء مجموعة من العشاقو المضحين المدلهين في الحب.

علي هو ذلك الذي و إن كان يقيم الحدود الإلهية علي الناس و يجلدهم و يقطع يد سارقهم بموجب الشرع ، فإنهم لم يلووا عنه كشحاً و لم تنقص محبتهم له أبداً. و هو في هذا يقول:

«لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا علي أن يبغضني ما أبغضني. أو لو حببت الدنيا بجمّاتها علي المنافق علي أن يحبني ما أحبين، و ذلك أنه قضي فانقضي علي لسان النبي الأمي (ص) أنه قال: يا علي لا يبغشك مؤمن و لا يحبك منافق»[13].

إن عليّاً ميزان توزن به الفطرة و الطينة. فمن كان ذا فطرة سلمية و طينة طاهرة لا يبغضه حتي لو ضرب خيشومه. و من كان ذا فطرة ملوثة لا يحبه حتي لو أحسن إليه كل الإحسان ، لأن عليّاً ليس سوي الحق متجسداً.

ها هو رجل من محبي علي أمير المؤمنين ، ذو فضيلة و إيمان ، و لكن مما يؤسف له أنه قد زلت قدمه، فكان لابد من

[13]. نهج البلاغة، الحكمة 42.

إجراء الحد عليه. قطع علي أصابعه اليمني، فأمسك بها بيده اليسري و مضي و قطرات الدم تنزف منه. فأراد ابن الكواء أن يستغل هذا الحدث لمصلحة أصحابه الخوارج و ضد علي (ع)، فتقدم نحوه و قد ارتدي ملامح التعطف و الترحم و سأله: «من قطع يمينك؟».

فقال:

«قطع يمني سيد الوصيين ، و قائد الغر المحجلين و أولي الناس بالمؤمنين ، علي بن أبي طالب، إمام المهدي ... السابق إلي جنات النعيم، مصادم الأبطال، المنتقم من الجهال، معطي الزكاة ... الهادي إلي الرشاد، و الناطق بالسداد، شجاع مكي، حجاج و في...».

فقال ابن الكواء:

«الويل لك! يقطع يمينك و تثني عليه!».

فقال:

«كيف لا أثني عليه و قد خالط حبه لحمي و دمي! و الله ما قطع يدي إلا بما أنزله الله»[14].

[14]. بحار الأنوار، ج 40 ص 281 و 282 الطبعة الحديثة. و التفسير الكبير لفخر الدين الرازي ، ذيل الآية 9 من سورة الكهف.

هذه النماذج من العشق و الولوع التي نراها في تاريخ علي ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

إكسير المحبة

يطلق شعراء الفرس علي العش لفظة (إكسير). و كان أصحاب الكيمياء يعتقدون أن في العالم مادة أسموها «الإكسير»[15] أو «الكيمياء» تستطيع أن تحيل المادة إلي مادة أخري، فراحوا يبحثون عن هذه المادة قروناً طويلة.

و قد استعمل الشعراء هذا المصطلح و قالوا: إن الإكسير الحقيقي القادر علي التغيير و التحويل هو الحب، فالحب هو

[15]. جاء في (البرهان القاطع) عن الإكسير أنه جوهر مذيب و مازج و مكمل، وهو يحول النحاس إلي ذهب. كما أنهم يطلقون هذه الكلمة علي العقاقير النافعة، و علي رأي المرشد الكامل، من باب المجاز . و هذه الخصائص الثلاثة - في الحقيقة – موجودة في الحب، فهو يذيب و يمزج و يكمل. إلا أن وجه الشبه المعروف هو هذه الخصيصة الأخيرة، أي التغيير التكميلي.و لذلك فالشعراء قد يسمّون الحب بالطبيب و الدواء و أفلاطون و جالينوس.. إلخ...

القادر علي قلب الماهيات. العشق هو الإكسير و له خصائص الكيمياء ، أي إنه يبدل المعدن معدناً آخر، و الناس معادن.

«الناس معادن كمعادن الذهب و الفضة». الحب هو الذي يجعل القلب قلباً، فلو لا الحب لكان القلب مجرد ماء وطين.

و من آثار الحب القوة و القدرة . إنه يخلق القوة و يحيل الجبان شجاعاً.

إن الدجاجة ما دامت وحيدة تطبق جناحيها و تدرج في هدوء، و قد تمد رقبتها لتلتقط دودة، و تفزع هارية من أتفه صوت، و لا تبدي أية مقاومة حتي أمام الطفل الضعيف . إلا أن هذه الدجاجة نفسها إذا صارت أمّاً، و نمكن الحب من حنايا كيانها، تغير حالها ، فتراها و قد أنزلت جناحيها في حالة التهيؤ للدفاع، و تتخذ هيئة المحارب، و حتي صوتها يمتليء قوة و شجاعة .. كانت من قبل تهرب عند استشعار الخطر ، أما الآن فإنها تهجم عند استشعار الخطر، و تهجم بكل جرأة، إنه الحب الذي أحال هذه الدجاجة الجبانة إلي حيوان جريء و شجاع !...

إن الحب يحيل الثقيل الكسول إلي خفيف سريع الحركة، بل إنه يحيل الأحمق إلي ذكي حادّ الذهن.

هذا التفي و هذه الفتاه اللذين لم يكونا يفكران – و هما خليلين – إلا فيما يخصهما وحدهما، أصبحا – بعد أن ارتبطا برباط الزواج و تكوين العائلة – لا يفكران إلا فيما يخص الطرف الآخر، فتتداخل أشعة مطاليبهما ، و ما أن يرزقا بالوليد حتي يتغيران كل التغير. فذاك الفتي المتثاقل الكسول غدا سريعاً كثير الحركة، و تلك الفتاه التي لم تكن تغادر الفراش إلا بعناء، أمست الآن كالبرق الخاطف انطلاقاً إذا سمعت صوت طفلها النائم في المهد . تري ما تلك القدرة التي أزالت ذلك الكسل و التراخي و استدلته بكل هذا النشاط و الحركة؟ إنها الحب ليس غير!..

إنه الحب الذي يحيل البخيل كريماً، و العجول صبوراً!...

إنه الحب الذي يجعل من الدجاجة الأنانية التي لم تكن تفكر إلا في نفسها ، و تلتقط الحب لحياتها، حيواناً جواداً إذا وجدت حبة نادت فراخها. و إنه الحب الذي يجعل من الأم التي كانت بالأمس القريب أنانية، مغرورة، كسولة تستعجل الأمور ثائرة الأعصاب ، ضيعفة الصبر ، قليلة التحمل، امرأة عجيبة في صبرها و تحملها و رضاها بالجوع و العطش و التعب و قلة النوم و انعدام الأناقة و تحمل مشاق الأمومة.

إن من آثار الحب ارقة و اللطف و تجنب الخشونة و الفظاظة، و من آثاره تلطيف العواطف و الأحاسيس، و كذلك التوحيد و التوحد و التركيز، و القضاء علي التشتت و التفرق، و من بلوغ القوة الحاصلة من الاتحاد و التجمع.

أما في الشعر و الأدب و الأدب فإننا نصادف أثراً واحداً من آثار الحب، و هو فيض الوحي و الإلهام ، يقول حافظ الشيرازي ما ترجمته:

(البلبل من فيض الورد تعلم الكلام ، و إلا ما كان كل هذا القول و الغزل معبأ في منقاره)[16].

فعلي الرغم من أن المعني الظاهري لكلمة «فيض» أمر خارج عن وجود البلبل ، إلا أنه ليس في الحقيقة سوي قدرة الحب.

(لا تظنن مجنوناً اصيب بالجنون جزافاً فهو «مجذوب» ليلي من قرنه إلي قدمه[17].

إن الحب يوقظ القوي النائمة و يطلق الطاقات المقيدة. مثل ذلك انفلاق الذرة و انطلاق طاقاتها.

[16]. «لسان الغيب» حافظ الشيرازي.
[17]. للعلامة الطباطبائي.

إنه يلهم ، و يصنه الأبطال. و ما أكثر الشعراء و الفلاسفة و الفتانين الذين خلقهم حب قوي!.

الحب يوصل النفس إلي كمالها و يظهر المواهب الكامنة المحيرة . إنه يلهم القوي المدركة، و يقوي مشاعر الإرادة و العزيمة. و إذا ما تسامي في العلي صنع الكرامات و خوارق العادات.

إنه يطهر الروح من الأخلاط و الشوائب. فالحب، بعبارة أخري، يصفّي. إنه يمحو الصفات الرذيلة الناشئة من الأنانية أو من البرود و انعدام الحرارة ، كالبخل، و التقتير، و الجبن، و الكسل ، و التكبر و العجب. إنه يزيل الحقد و الحسد، و إن قيل أن الحرمان و الإخفاق في الحب يمكن أن يخلقا بدورهما الحقد و العقد

(بالحب يحلو كل مر

بالحب يصبح النحاس ذهباً)[18]

أثر الحب علي الروح إعمار و بناء ، و علي الجسم تذويب و تخريب. إن أثره في الجسم عكس تأثيرة في الروح ، فهو في الجسم باعث علي خرابه و اصفراره و نحوله و سقمه و اختلال هامته

[18]. المثنوي المعنوي . ترجمة.

و أعصابه ، و غير ذلك من صور الهدم و التخريب... و لكنه في الروح ليس كذلك ، بحسب موضوع الحب، و ما يريده المحب منه. فإذا تجاوزنا آثار الحب الاجتماعية، فإنه من حيث آثاره الروحية الفردية تكميلي، لأنه يولد القوة و الرقة و الصفاء و الاتحاد و الهمة، و يقضي علي الضعف و الجبن و الكراهية و التفرق و البلادة ، و ينقي الروح من الشوائب التي هي «الدسّ» بتعبير القرآن ، و يزيل الغش و يجعل العيار خالصاً.

تحطيم الحدود

إن الحب – بصرف النظر عن نوعيته، حيوانياً جنسياً كان أم حيوانياً أو إنسانياً نسلياً، و بصرف النظر عن مزايا الحبيب و صفاته من شجاعة و بطولة و فن و علم ، أو كان ذا أخلاق و آداب و صفات خاصة – يخرج المرء من الفردية و الأنانية. الأنانية تقييد و تحديد ، و الحب يحطم هذه القيود و الحدود. و ما لم يخرج الانسان من ذاته يكون ضعيفاً، خائفاً، بخيلاً، حسوداً، شريراً، عجولاً، محباً لذاته ، متكبراً، كليل الروح ، فاتر الهمة و النشاط، منطفئاً ذائم البرود. و لكنه ما إن يضع قدمه خارج «ذاته» و يحطم ما أحاط نفسه به من حدود، حتي تتلاشي كل تلك الصفات الرذيلة.

إن الأنانية بذلك المفهوم القبيح الذي ينبغي التخلص منه ليس تلك الحالة الوجودية أو العلاقة الوجودية التي تربط الإنسان

بذاته و كينونته. إذ لا معني لأن يسعي المرء كيلا يحب نفسه .

؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟يحاول اجتثاثه من دخيلته. إن صلاح الإنسان و بلوغه الكمال لا يعني أن هناك مجموعة من الأمور الزائدة قد عبئت في ذاته، فعليه أن يسعي لإزالة تلك الأمور الزائدة المذمومة المضرة، و بعبارة أخري: تكامل الإنسان لا يكون بالحذف منه، بل بالاضافة إليه. إن الواجب الملقي علي كاهل الإنسان هو السير نحو الاكتمال، و هذا يكون بالاستزادة، لا بالانتقاص.

أما الصراع مع «حب الذات» فهو الصراع مع «محدودية الذات» و ضيقها. فالذات ينبغي أن تزداد سعة، و هذ الحصار الذي ضربته حول نفسها – ذلك الحصار الذي يجعلها لا تري إلا ما يخصها هي بالذات و يبعدها عن رؤية ما للآخرين – يجب أن يتحطم ، لتتسع شخصية الإنسان فتسع الآخرين بل تسع العالم كله. إذن ... فالنضال ضد «حب الذات» يقصد به النضال ضد هذا الحصار، ضد الحدود و القيود التي تحد ذات الإنسان. فالمقصود بحب الذات هنا ليس سوي محدودية الفكر و ضيقه. و يأتي الحب ليحول ميول المرء و رغباته من داخل ذاته إلي خارجها، و يوسع من حدود كيانه و يغير من طبيعة وجوده. و علي هذا فالحب من العوامل الكبيره في التربية

الأخلاقية ، إذا ما وجد الهداية الصحيحة و استغل الاستغلال النافع.

الحب ... يبني أم يخرب؟

إن التعلق بشخص أو بشيء ، إذا بلغ أوج شدته بحيث أنه يكتسح وجود الإنسان و يسخره و يصبح الحاكم المطلق عليه، يكون هو الحب أو العشق، و هو القمة من المشاعر و العواطف.

إلا أننا ينبغي ألاّ نظن أن هذا الذي أطلقنا عليه اسم (الحب) نوع واحد. كلا، إنه نوعان مختلفان كل الاختلاف. إن الآثار الحسنة التي سبق ذكرها تختص بأحد النوعين. أما آثار النوع الآخر فهدامة مخربة ، علي النقيض من الأول.

إن لمشاعر الإنسان مراتب و درجات، بعضها ينطوي تحت مقولة الشهوات، و علي الأخص الشهوة الجنسية، و هذا مما يشترك فيه الإنسان و الحيوان ، إلا إنها في الإنسان تصل إلي درجة الغليان أحياناً لأسباب لا مجال لذكرها الآن، فيطلق عليها

لذلك – اسم الحب، و لكنها ليست بهذه الصورة في الحيوان أبدا. و لكنها علي كل حال ليست سوي فوران الشهوة و طغيانها ، ابذنه بالغريزة الجنسية و منتهية بها. و إنما يرتبط ارتفاعها و انخفاضها إلي حد كبير بالنشاط الفزيولوجي في اعضاء التناسل و بقوة الحيوية في الشباب ، و ضعفها التدريجي في الشيوخ.

أن الشباب الذي يرتجف كلما رأي وجهاً مليحاً و شعراً جعداً، و يتلوي علي نفسه كلما لمس يداً ناعمة ظريفة ، فليعلم أن الأمر ليس سوي الجريان المادي الحيواني.. هذا النوه من الحب سريع المجيء سريع الذهاب، لا يعتمد عليه، و لا يقبل نصيحة. إنه خطر يقتل الفضيلة ، و لا يمكن درء خطره إلا بالعفاف و التقوي و عدم الاستسلام . أي إن قوة هذا الحب لا تسوق الإنسان نحو أية فضيلة.

و لكنه إذا نفذ إلي كيان المرء و وقف وجهاً لوجه مع العفاف و التقوي ، و استطاعت النفس أن تتحمل ضغطه دون أن تستسلم ، فهو عندئذ يمنح الروح قوة و كمالاً.

في الإنسان نوع آخر من المشاعر تختلف في حقيقتها و ماهيتها عن الشهوة، و لنا أن نطلق عليه اسم «العاطفة» أو، أو يسمسه القرآن «المودة» و «الرحمة».

عندما يكون الإنسان تحت تأثير شهواته ، لا يكون قد خرج

من ذاته ، فهو يرغب في الشخص أو الشيء و يريده لنفسه و يلح في طلبه. فإذا فكر في الحبيب فإنما يفكر كيف ينال وصاله و يبلغ أقصي المتعة منه. بديهي أن هذه الحالة لا يمكن أن تكمل الإنسان و تربي روحه و تهذبها.

إلا أن الإنسان قد يقع تحت تأثير عواطفه الإنسانية السامية، فيصبح المحبوب و المعشوق في نظره شيئاً عظيماً محترماً يتمني له السعادة ، و يفتدي رغباته بنفسه . هذه العواطف تخلق في المرء مشاعر الصفاء و الحميمية و اللطف و الرقة و نكران الذات، بخلاف النوه الأول الذي يقوم علي الغلظة و الحيوانية و الإجرام. إنّ من أمثله النوع الأخير محبة الأم لاطفال.

إن هذا النوع من العواطف هو الذي إذا بلغ أوج قوته و كماله أوجد تلك الآثار الطيبة التي ذكرناها. و هذا النوع هو الذي يمنح النفس جلالها و عظمتها و شخصيتها ، بخلاف النوع الأول ا لذي يجعل صاحبه و ضيعاً حقيراً. إن هذا النوع هو الحب المكين الذي يزداد بالوصال شدة وحدة ، بخلاف النوع الأول الذي يكون سريه الانهيار، و في الوصال نهايته.

يصف القرآن الكريم العلاقة بين الزوجين بالمودة و الرحمة : (وَ مِنْ آياتِهِ أنْ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أنْفُسِكُمْ أزْواجاً لِتَسْكُنُوا

إلِيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَةَ و رَحْمَةً)[19]. و في هذا شيء كثير من ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟في الحياة الزوجية، و إلي دن عامل الشهوة ليس الرابط الطبيعي الوحيد فيها ، بل إن الرابط الأصيل فيها هو الصفاء و الحميمية و اتحاد الروحين و بعبارة أخري: إن ما يجمع الزوجين و يوحد بينهما هو حرارة المحبة و المودة و الصفاء، لا تلك الشهوة الموجودة في الحيوانات أيضاً.

إن الفلاسفة الماديين لم يسطيعوا إنكار هذه الحالة الروحية التي لها جوانبها غير المادية و التي لا يرونها تنجسم مع مادية الإنسان.

يقول برتراند راسل في كتابه (الزوج و الأخلاق):

«إن العمل الذي لا يستهدف إلا الربح لن تكون له نتائج مفيدة فلبلوغ هذه النتائج يلزم إختيار عمل ينطوي علي الإيمان بفرد أو بشيء . كذلك الحب، فهو إذا استهدف وصال الجبيب فحسب كان علي مستوي العمل طلباً للربح نفسه، و لم يزد شيئاً في كمال شخصيتنا. و للوصول إلي هذه الغاية ينبغي علي المحب أن ير «الأنا» في الحبيب الأنا»في ذاته

[19]. سورة الروم ، الآية 21.

أهمية، و أن يعتبر مشاعر الحبيب و غباته مشاعره هو و رغباته.»

ثمة نقطة أخري جديرة بالتذكر، و هي ما قلناه عن أنه حتي الحب الشهواني قد يكون ذا فائدة، و لا يكون ذلك إلا إذا صاحبته التقوي و العفاف، فالنأي و الحرمان من جهة ، و العفاف و الطهارة من جهة أخري، تسبب العذاب و الضغط و الألم للروح، فتكون لها آثار نافعة.

و في هذا يقول المتصوفون: إن الحب المجازي يتحول إلي حب حقيقي، إلي حب الله ذاته. و في هذا – أيضاً – يروي أن «من عشق، و كتم، و عف، ومات، مات شهيداً».

و لكن ينبغي أن لا يغرب عن بالنا أن هذا النوع من الحب 0 علي الرغم مما قد يكون فيه من فائدة – ليس مما يمكن تحبيذه. إنه لواد ذي خطر، و يشبه في هذا المصيبة التي تحيق بالمرء، فإن واجهها بالصبر و الرضي، كانت مكملة لشخصه و مطهرة لنفسه، فتنتضج الغِر ، و تصفي الكدر، و مع ذلك فالمصيبة لا يمكن تحبيذها ، إذ ليس من المعقول أن يستنزل المرء علي نفسه المصائب، و لا علي غيره بهدف الوصول عن طريقها إلي تلك الفوائد.

إن لبرتراند راسل فيهذا أيضاً قول جميل:

«العذاب يملأ الناس بالطاقة كالثقل الثمين. إن من بحد نفسه سعيداً كل السعادة لن يبذل أي جهد للاستزادة منها. إلا أنني لا أري في هذا عذراً مقبولاً يدفعنا إلي تعذيب الآخرين لحملهم علي التقدم نحو الخير ، لأن ذلك في أغلب الأحيان يؤذي إلي عكس المطلوب و يحطم الإنسان . و عليه فالأفضل أن نستسلم لما يصادفنا في منعطفات مسيرة الحياة»[20].

إن الإسلام – كما نعلم – يذكر كثيراً أثار البلايا و فوائدها ، و أنها من ألطاف الله تعالي، إلا أنه لا يجيز لأحد اتخاذ ذريعة لخلق المصائب للنفس أو للآخرين.

ثم إن هناك اختلافاً بين الحب و المصيبة ، و هو أن الحب من أشد العوامل الأخري«مجانبة للعقل»، فحيثما وضع الحب قدمه أنزل العقل عن عرش سلطانه. و لهذا نجد الأدب الصوفي يشير إلي العشق و العقل كرقيبين . و من هنا 0 أيضاً – جاء التضاد بين الفلاسفة و المتصوفة ، فأولئك يعتمدون العقل هادياً، و هؤلاء يتخذون الحب مرشداً.

و المتصوفة في أبهم يجعلون العقل محكوماً عليه

[20]. برتراندراسل (زناشويي و اخلاق) ص 134.

و مغلوباً في ميدان التنافس مع العثل. هذا سعدي يقول ما ترجمته:

(ينصحني الذين يريدون لي الخير:

صنع اللّبن فوق البحر لا جدوي فيه)

(ان قوة الشوق تغلب البصر

و دعوي العقل علي العشق باطلة)

و يقول آخر ما ترجمته:

(قارنت حكمة العقل في طريق الحب

فكان كقطر الندي يرسم علي مياه البحر)

إن طاقة تكون بهذه القوة و تأخذ زمام الاختيار من يد الإنسان ، و كما يقول مولوي: «تجعل المرء مريشة في مهب الرياح» أو كما يقول برتراندراسل :«هي أقرب إلي الفوضي» كيف يمكن الدعوة لها و الايصاء بها؟

و مهما يكن، فكون الأمر مفيداً شيء ، و تجويزه و الإيصاء به شيء آخر.

و عليه ، فليس هناك ما يدعو لقبول اعتراض بعض المتشرعين علي بعض فلاسفة الإسلام [21] لتطرقهم في بحث

[21]. مثل ابن سينا في (رسالة العشق) و صدر المتألهين في السفر الثالث من أسفاره.

الإلهيات إلي آثار الحب و فوائده ، و ذلك لأنهم اعتقدوا أن اولئك الفلاسفة يعتبرون الإيصاء بالحب جابر، مع أنهم قصدوا إلي ذكر فوائده في جو من التقوي و التعففِ، و لم يقولوا بجوازه أو الايصاء به، كما هي الحال مه المصائب و البلائا تماماً.

حب الأولياء

قلنا: إن الحب لا يقتصر علي الحب الحيواني الجنسي، و لا الحب الحيواني النسلي ، بل إن هناك نوعاً آخر ينمو في جو أعلي و ارفع، خارج حدود الماديات ، و يستمد وجوده مما وراء غريزة بقاء النوع. و هو – في الحقيقة – الحد الفاصل بين عالم الإنسان و عالم الحيوان. إنه الحب المعنوي الإنساني . إنه تعشق فضائل الإنسان و ما فيه من خير، و الولوع بالسجايا الإنسانية و جمال الحقيقة.

و هذا الحب هو الذي يرد كثيراً في القرآن تحت ألفاظ «المحبة» و أحيانا «الود» أو «المودة». و يمكن تقسيم الآيات الخاصة بهذا في القرآن إلي عدة أقسام ، فمنها:

1 – الآيات التي وردت في وصف المؤمنين و تتحدث عن حبهم العميق لله أو للمؤمنين :

(وَ الَّذِينَ أمَنُوا أشَدَّ حُبّاً لله) (2: 165).

(وَ الَّذينَ تَبَوَأوُا الدّارَ و الأيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إلَيهِنْ وَلا يَجدُونَ فِي صُدُورِهِمْ مِمّا أُوتُوا وَ يُؤْثِرُونَ عَلي أنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ) (59:9)

2 الآيات التي تتحدث عن حب الله للمؤمنين :

(إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِرِينَ) (1:22).

(وَ الله يُحِبُّ المُحْسِنِينَ)(5:13 و 3 : 148).

(وَ الله يُحِبُّ المُتَّقِينَ) (9: 4 _ 7).

(وَ الله يُحِبُّ المُطَّهَّرِينَ) (9: 108).

(وَ الله يُحِبُّ المُقْسِطِينَ) (49: 9 و 60 :8).

3 – الآيات التي تتضمن الحب المتبادل بين الطرفين ، حب الله للمؤمنين و حب المؤمنين لله، و حب المؤمنين بعضهم بعضاً:

(قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) (3: 31).

(فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحبُّونَهُ) (5: 54).

(إنّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدّا) (19: 96).

(وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً) (30:21)

و هذه هو الحب الذي أراده إبراهيم لذريته [22]، و ما طلبه نبينا (ص) لأهله بأمر من الله[23] .

و يستفاد من الروايات أن روح الدين و جوهره ليس سوي الحب و المحبة. يقول بريد العجلي:

كنت حضرة الإمام الباقر (ع) فدخل عليه مسافر من خراسان كان قد قطع تلك المسافة الطويلة للتشرف برؤية الإمام ، فعندما نزع نعليه رأيت الشقوق في قدميه. قال: و الله لم يأت بي آت من حيث جئت سوي حبكم أهل البيت . فقال الإمام (ع) : و الله لو أحبنا حجر لحشره الله معنا. «و هل الدين إلا الحب»[24].

قال رجل للإمام الصادق (ع): إننا نسمي أبناءنا

[22]. سورة إبراهيم ، الآية 37.
[23]. سورة الشوري ، الآية 23.
[24]. (سفينة البحار) ج 1 ص 201 مادة «حب».

بأسمائكم و أسماء آباؤكم . أينفعنا هذا في شيء؟ فقال الإمام : «نعم والله. و هل الدين إلا بالحب. ثم قلا الآية الشريفة: (إنّ كُنْتُمُ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتْبَعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله»[25].

إنه الحب الذي يحمل علي الطاعة، فالعاشق لن يتأتي له أن يتقاعس عن تحقيق إرادة المعشوق. إننا هذا بأعيننا، فهذا الشباب العاشق يضحي بكل شيء و يتنازل عن كل شيء في سبيل معشوقته.

إن اطاعة الله و عبادته تكون بمقدار حب الإنسان لله تعالي قال الامام الصادق (ع):

تعضي الأله و أنت تظهر حبه

هذا لعمري في الفعال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته

إن المحب لمن يحب مطيع

[25]. المصدر نفسه ص 662 مادة «سما» .

قوة الحب في المجتمع

الحب في المجتمع قوة عظيمة و مؤثرة . خير المجتمعات تلك التي تدار بقوة الحب: حب الزعيم و الحاكم للناس، و حب الناس و تعلقهم بزعيمهم و قائدهم.

إن حب الحاكم عامل عظيم في استقرار الحكومة و دوامها. فبغير عامل الحب لا يستطيع قائد أن يقود، و إذا استطاع فبصعوبة بالغة ، بحيث يربي أفراد الناس علي الانضباط و التزام القانون ، حتي و إن أقام العدل و المساواة بينهم ، و في هذه الحالة سيلتزم الناس القانون، و من هذا المنطلق سوف يتوقعون أن يروا في قائدهم أمارات الحب، و هذا الحب هو الذي يحمل الناس علي الطاعة و التسليم.

و ها هو القرآن يخاطب رسول الله (ص) بقوله:

(فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِظَ

الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)[26].

فالقرآن يري سبب حب الناس للنبي (ص) هو الحب الذي يبديه رسول الله (ص) نحوهم. و مع ذلك فإنه يوصيه بأن يعفو عنهم و يستغفر لهم و يستشيرهم في أمورهم. كل ذلك من آثار المحبة و المودة ، كما أن الرفق و الحلم و الصبر جميعاً من شؤون الحب أيضاً.

و يقول القرآن أيضا:

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ).[27]

الإمام علي أمير المؤمنين (ع) يوصي مالكا الأشتر عند توليته مصر بقوله:

«واشعر قلبك الرحمة للرعية و المحبة لهم و اللطف بهم ... فاعطهم من عفوك و صفحك كثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه و صفحه»[28].

---

[26]. سورة آل عمران ، الآية 159.
[27]. سورة فصلت : الآية 34.
[28]نهج البلاغه.

قلب الحاكم يجب أن يكون منبع العطف علي الأمة و المحبة لها، فالقوة و العنف لا يكفيان ، فبهذين يمكن سوق الأمة سوق الأغنام ، و لكن لا يمكن بهما إيقاظ ما في داخلهم من طاقات كامنة للعمل. لا القوة و العنف وحدهما، بل إن العدالة الجافة لا تكفي معهما أيضاً.. إن علي الحاكم أن يحب الناس حباً أبوياً بجماه قلبه، و أن يظهر لهم مودته و عطفه ، و لابد أن يكون ذا شخصية جذابة تصنع المحبين، لكي يسطتيع أن يضع إرادتهم و همتهم و طاقاتهم الإنسانية العظيمة الخلافة في خدمة هدفه المقدس.

الوسيلة الفضلي لتهذيب النفس

كان البحث السابق في الحب و آثاره مقدمة للتوصل إلي النتائج التي سوف نتناولها بالبحث فيما يلي:

إن أهم بحث من بحوثنا – و هو بحثنا الأصل في الواقع – هو معرفة ما إذا كان حب الأولياء و الصالحين يعتبر هدفاً بحد ذاته و الوسيلة الفضلي لتهذيب النفس و إصلاح الأخلاق و كسب السجايا و الفضائل الإنسانية.

في الحب الحيواني، يتوجه كل اهتمام العاشق و عنايته إلي صورة الحبيبة و تناسق اعضائها و جمال ملامحها و طراوة بشرتها، و في هذا الحب تكون الغريزة هي التي تجذب الإنسان و تلهب فيه الرغبة ، و لكن بعد أن يشبع شهوته يخبود ذلك اللهيب و تبرد حرارته و تنطفيء شعلته.

أما الحب الإنساني ، فهو الحياة و هو الذ يصنع الأتباع

الطائعين ، كما قلنا .. إن الحب هو الذي يشاكل بين العاشق و المعشوق، فيسعي المحب لأن يكون مظهراً من مظاهر الحبيب و نسخة من سلوكه، كما يقول الخواجة نصير الدين الطوسي في شرح (إشارات) ابن سينا:

«و النفساني هو الذي يكون مبدؤه مشاكلة نفس العاشق لنفس المعشوق في الجوهر، و يكون أكثر إعجاباً بشمائل المعشوق لأنها آثار صادرة عن نفسه ... و هو يجعل النفس لينة شيقة ذات وجد ورقة ، منقطعة عن الشواغل الدنيوية»[29].

فالحب يسوق، الإنسان نحو المشابهة و المشاكلة، و ما فيه من قدرة تجعل المحب بشكل المحبوب. الحب كأسلاك الكهرباء التي تصل بين المحبوب و المحب. فتنقل اليه صفات المحبوب. و لهذا كان لاختيار المحبوب أهميةبالغة.

و لذلك أولي الإسلام اهتماماً كبيراً بموضوع اختيار الأحبة و الأصدقاء ، و قد وردت في ذلك آيات و روايات كثيرة ، لأن الصداقة تصطنع الصبغة و تصطنع الجمال، و تصطنع الغفلة ، فحيثما ألقت بأشعتها قلبت العيوب فنوناً،

[29]. (شرح الإشارات) ج 3 ص 383 الطبعة الجديدة.

و أحالت الأشواك ورداً و ريحاناً[30].

و هناك آيات و أحاديث تحذره بشدة من مصاحبة رفاق

[30]. إن في الحب عيوناً، منها أن العاشق – و قد استغرقه حسن المعشوق – يغفل عن رؤية ما فيه من عيوب، فحب الشيء يعمي و يصم ، و «من عشق شيئاً أعشي بصره و أمرض قلبه» كما يقول الإمام علي (ع) . و هذا لا يتنافي مع ما قلناه من أن الحب يجعل الذكاء حاداً و الإدراك أعمق، و يحيل القوة إلي الفعلية . كما أن تأثير الحب السيىء ليس أن يحيل المرء إلي أبله ، بل تنتايه الغفلة ، و البلاهة و الغفلة مختلفتان . فكثيراً ما يستطيع القللي الذكاء الابتعاد عن الغفلة بحفظ تعادل مشاعره.

الحب يحد الذكاء ، و لكنه يوجه النظرة و التوجه إلي اتجاه واحد، لذلك فقد قيل: إن أثر العشق التوحد، و من هذا التوحد و التمركز يحصل العيب فيغفل الإناسن عن الالتفات إلي الأمور الأخري.

و الأكثر من ذلك هو أن الحب لا يغطي العيوب فحسب ، بل إنه يقلب القبيح حسناً، إذ أن من خصال الحب أنه حيثما شع نوره ظهر الجمال، فالذرة من الحسن تبدو كالشمس، بل يبدو الأسود أبيض و الظلام ضياء.

و الظاهر أن السبب هو أن الحب ليس كالعلم الذي يعتمد علي المعرفة كلياً. فالحب جانبه الباطني النفساني أقوي و أشد من جانبه الخارجي العيني، أي إن مقدار الحب لا يتبع مقدار الحسن بل هو أكثر ما يتبع مقدار الاستعداد لتقبله ... إن في العاشق – في الواقع – جوهراً، مادة، أو إنه النار تحت الرماد، تبحث عن العذر و الموضوع. و عندما يصادف يوماً هذا الموضوع و يحصل التوافق – و هذا ما لم يعرف سره حتي الآن ، و لذلك يقال: إن الحب لا يحتاج إلي سبب – تظهر تلك القوة الباطنية و تصطنع الجمال بقدر ما تستطيع ، لا بالقدر الموجود فعلاً في المعشوق. و هذا هو معني القول: إن الود يقلب العيوب فنوناً و الأشوالك و رداً و ريحاناً.

السوء و بتادل الود معهم، و في أخري حث علي مصادقة الأخيار الأطهار.

قال ابن عباس : كنا في حضرة الرسول (ص) فسألوه: من خير جليس؟ فقال (ص):

«من ذكّركم بالله رؤيته ، و زادكم في عملكم منطقه ، و ذكركم بالآخرة عمله.»[31].

ما أحوج الإنسان إلي إكسير حب الصالحين و الأطهار، إلي أن يحبهم و يصطبغ بصبغتهم!

هنالك هدة طرق لتهذيب النفس و إصلاح الأخلاق، كما هناك مدارس مختلفة لذلك ، منها مدرسة سقراط التي تري أن علي المرء أن يعتمد العقل في إصلاح نفسه ، فيلزمه أولاً أن يدرك فوائد تزكية النفس و مضار اختلال الأخلاق، ثم يقوم بواسطة آلة العقل بالبحث عن الصفات المذمومة واحدة واحدة فيقتلعها كما يتلع المرء الشعيرات من داخل أنفه واحدة واحدة، أو كالزارع الذي يقتلع الحسائش الضارة من أرضه ، أو ينظف قمحه مما فيه من أحجار و صخيرات بيده ، و بذلك يكون قد نظف بيدر حياته من الشوائب.

[31]. (بحار الانوار) ج 15 كتاب العشرة ، ص 51 الطبعة القديمة.

و علي وفق هذا الأسلوب لابد من التزام الصبر و الجلد و الدقة في الحساب و التفكسير لكي يمكن بالتدريج إزالة المفاسد الأخلاقية و تنقية دهب الوجود من أوشابه، و لربما أمكن القول بأن ذلك غير متسير للعقل أن يضطلع به.

الفلاسفة يريدون إصلاح الأخلاق من العقل و الفكر و التفكير. فهم يقولون ، مثلاً: إن العفة و القناعة في نظر الناس ما اللذان يؤديان إلي عزة الإنسان و شخصيته، و إن الطمع و الجشع هما باعثا الذلة و الضعة.

أو يقولون : إن العلم سبب القوة و القدرة ، و إنه كذا و كذا ، و إنه «خاتم ملك سلميان» و إنه سراج في طريق الإنسان ينير له الطريق و يكشف المهاوي.

أو يقولون: الحسد و إرادة السوء للناس دليل مرض نفسي له عواقب اجتماعية سيئة، و ما إلي ذلك من أقوال.

لا شك في أن هذا طريق صحيح، وأن هذه وسيلة جيدة. و لكن الكلام يدور علي قيمة هذه الوسيلة بالقياس الي وسيلة أخري، كالقول بأن السيارة وسيلة جيدة، و لكن ينبغي معرفة درجة جودتها بالنسبة للطائرة مثلاً.

نحن - قبل كل شيء – لا نجادل في قيمة العقل من حيث عمله الإرشادي، إي إلي أي مدي تكون الاستدلالات

العقلية قادرة إظهار الواقع في القضايا الأخلاقية و مدي ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ المدارس الفلسفية الأخلاقية و التربوية لا تعد و لا تحصي، و ما زالت هذه القضايا الاستدلالية تدور ضمن حدود البحث و اختلافات وجهات النظر، و في هذا يقول أهل التصوف:

(قوائم الاستدلال خشبية

و القوائم الخشيبة جد غير مكينة)

إننا لا نبحث هذا في الوقت الحاضر، و إنما نبحث في المدي الذي تبلغه.

إن رجال العرفان و السير و السلوك قالوا باستبدال طريق العقل و الاستدلال بطريق المحبة و الولاء . يقولون: ابحث عن الإنسان الكامل، ثم ضع حبل حبه و الولاء له في عنق قبلك، فذلك أقل خطراً من الاستدلال و اسرع في بلوغ المرام.

من حيث المقارنة بين هاتين الوسيلتين فإنهما تكونان كالمكائن اليدوية القديمة و المكائن الآلية الحديثة. إن تأثير قوة الحب و الولاء في إزالة الرذائل الأخلاقية من القلب أشبه بتأثير المواد الكيماوية علي المعادن. فصانع (الكلايش) مثلاً يزيل أطراف الحروف الطباعية بالتيزاب ، لا بظفره أو

بالسكين. و لكن تأثير قوة العقل في إصلاح المفاسد الأخلاقية أشبه بمن يريد أن يفصل ذرات الحديد عن التراب باليد، فكم سيكون عناؤه و تعبه في هذا السبيل ؟! إذ لو كان بيده مغناطيس قوي لاستطاع بإرادة المغناطيس دورة واحدة في التراب أن يجتذب كل ذرات الحديد مرة واحدة.

إن قوة المحبة و الولاء هي المغناطيس الذي يجمع الصفات الرذيلة و يلقي بها بعيداً.

يري أهل العرفان أن حب الأطهار و الكاملين و الولاء لهم يعمل كالجهاز الآلي الذي يجمع الرذائل و يطرحها جانباً.

فلو أصبح المرء مجذوباً بحق لكان في أحسن حال من الصفاء و النبوغ.

نعم، إن الذين سلكوا هذا الطريق طلبوا إصلاح الأخلاق، من قوة الحب و اعتمدوا في ذلك علي قدرة العشق و الولاء . و لقد دلت التجارب علي أن مطالعة مئات الكتب الأخلاقية لم تؤثر بقدر أثر مصاحبة الصالحين و حبهم و متابعتهم في الروح.

يرمز (مولوي) بالناي إلي رسالة الحب، فيقول:

(من رأي كالناي سماض و ترياقاً معاً؟

من رأي كالناي جليساً و عاشقاً معاً؟)

(إن من قُدّ بالحب قميصه

ظهر من الجيشع و العيوب كلها)

(فمرحا لك أيها الحب ذو التعامل الحسن

و يا طبيب عللنا كلها)

نري أحياناً بعض العظماء الذين يقلدهم أتباعهم حتي في طراز مشيتهم و ملابسهم و تعاملهم و طريقة حديثهم. إن هذا التقليد ليس اختياراً، بل هو طبيعي يحدث بغير وعي و بتأثير قوة الحي و الولاء التي تؤثر في جميع أركان وجود المحب، فتعمل علي أن تجعله في جميع الأحوال أشبه بالحبيب.

و لهذا فعلي كل امريء يريد إصلاح نفسه أن يبحث عن أحد رجال الحقيقة فيمحضه حبه لكي يستطيع أن يصلح نفسه حقاً.

(إذا كان في رأسك هوي الوصال – يا حافظ

فعليك أن تصبح تراب أعتاب أهل الخبرة)

إن الإنسان الذي كان من قبل يتهاون كلما عنّ له أن يؤدي عبادة أو أن يعمل عملاً صالحاً. أصبح بعد أن وافاه الحب و الولاء و قد زايله ذلك الإهمال و التراخي ، فرسخ عزمه و قويت همته:

(حب الطيبين أخذ من الجميع قلوبهم و دينهم بغير و جل

و الرخ في الشطرنج لم يأخذ ما أخذه وجه الجميل)

(لا تظنن مجنوناً أصيب بالجنون جزافاً

فهو «مجذوب» ليلي من قرنه إلي قدمه)

(إنني لم أبلغ الشمس رفعة بنفسي

فقد كنت ذرة صعد بي حبك إلي العلي)

(إنهما قوسا حاجبيك و كفك السماوية

التي جالت في هذا المجلس و ذهبت بقلب المجنون)[32]

يشير التأريخ إلي رجال عظام أثار حب الكاملين و الولاء لهم – في نظر المحبين في الأقل – ثورة في أرواحهم و نفوسهم . و الشاعر (رومي) واحد من اولئك ، إذ أنه لم يكن منذ البداية بهذه الحرقة و الثورة . كان عالماً هادئاً منصرفاً إلي التدريس في زواية من مدينته. و لكنه منذ اليوم الذي التقي فيه (شمس) التبريزي ، وهب له قلبه و روحه و ولاءه، فأحاله هذا إلي شخص مختلف و أشعل في قلبه

[32]. هذه الآيات للعلامة الطباطبائي باللغة الفارسية و فيها الكثير من المحسنات البديعة ، ومنها التورية في «رخ» الشطرنج و «رخ» بمعني الوجه دو الخد – المترجم.

النيران كالشرر إذ يصيب مخزناً للبارود. إنه في الظاهر كان من الأشاعرة، إلا أن ديوانه (مثنوي) يعد من أعظم دواوين الدنيا . لقد نظم (ديوان شمس) في ذكري حبيبه و مراده ، و يذكره في (مثنوي) كثيراً أيضاً، حيث نراه في هذا الديوان يرمي إلي أن يقول شيئاً، و لكنه ما إن يتذكر (شمساً) حتي يضطرم في داخله طوفان عارم و تتلاطم فيه أمواج صاخبة ، فينقلب هو موضوع الكلام.

(ماذا أقول و ليس فيّ عرق مدرك

في وصف ذاك الحبيب الذي لا نظير له)

(شرح هذا الهجران و هذا العذاب

أتركه في هذا الوقت إلي وقت آخر)

(لا تبحث عن الفتنة و الاضطراب و إراقة الدماء

فلا تتحدث أكثر من هذا عن شمس التبريزي)

و هذا مصداق قول حافظ:

(البلبل من فيض الورد تعلم الكلام و إلا ما كان

كل هذا القول و الغزل معبأ في منقاره)

نماذج من التأريخ الإسلامي

في التأريخ الإسلامي نشاهد نماذج بارزة لم يسبق لها مثيل من حب المسلمين و تعلقهم بشخص رسول الله (ص). و هذا في الحقيقة واحد من الاختلافات بين مدرسة الأنبياء و مدرسة الفلاسفة ، ففي هذه يكون الطلاب متعلمين فحسب، بغير أن يكون للأساتذة الفلاسفة أي تأثير في نفوس طلابهم أكثر من تأثير أي معلم في تلميذه.

أما الأنبياء فنفوذهم من قبيل نفوذ الحبيب ، ذلك الحبيب الذي يكون قد نفذ إلي أعماق قلب محبه و استولي علي جماع حياته و وجوده.

و من بين الذين تولهوا في الحب النبي (ص) أبوذر الغفاري.

أمر رسول الله (ص) بالتحرك يوماً إلي تبوك (علي بعد

حوالي مائة فرسخ شمال المدينة المنورة عند الحدود السورية) فاعتذر بعضهم بمختلف الأعذار، وقف المنافقون حجر عثرة في طريق ذلك ... و لكن تهيأ في النهاية جيش جرار.

كانت تعوزهم التجهيزات العسكرية ، و لم يكن معهم من الطعام إلا النزر اليسير بحيث كان بعضهم يسد جوعه بتمرات معدودات. إلا أنهم جميعا كانو أشد ما يكونون حيوية و نشاطاً، فقد كان الحب ينفث فيهم القوة، و جاذبة رسول الله (ص) تزيدهم قدرة.

كان أبوذر – أيضاً – بين هذا الجيش المتجه إلي تبوك. و في خلال الطريق تأخر ثلاثة أشخاص واحداً بعد واحد ، فكانوا يخبرون رسول الله (ص) بذلك ، فكان في كل مرة يقول:«إذا كان فيه خير فسير جعه الله، و إذا لم يكن فيه خير فخيراً فعل».

و كان أبوذر يركب جملاً ضعيفاً نحبفاً لا يقوي علي السير، فتأخر به عن الركب، فقيل لرسول الله :إن أباذر قد تخلف أيضاً. فكرر رسول الله (ص) جملته تلك:

«إذا كان فيه خير فسير جعه الله، و إذا لم يكن فيه خير فخيراً فعل».

و يواصل الجيش مسيره و أبوذر متخلف عن لحاق الركب، لخور مطيته، و لم ينفع فيها ضرب و لا حث ، فهجر البعير، و حمل متاعه علي ظهره ، و راح يمشي فوق الصخور المحرقة في ذلك الحر اللافح، و قد أوشك علي الهلاك من شدة العظش. و وصل إلي صخرة في ظل جبل حيث ما كان ماء المطر قد تجتمع في بركة صغيرة ، فذاقه فإذا به عذب بارد، و لكنه امتنع عن الشرب قائلاً: و الله لن أشرب حتي يشرب منه حبيبي رسول الله . و ملأ قربته و وضعها علي كتفه و أسرع خلف جيش المسلمين.

رأي الجيش شبحاً بعيداً مقبلاً عليهم، فقالوا : ي رسول الله: نري شبحاً مقبلاً علينا ، فأخبرهم الرسول (ص) أنه لابد أن يكون أباذر. و إذا اقترب عرفوه . نعم ... إنه أبوذر، و لكنه يكاد يقع علي الأرض تعباً و عطشاً . و ما أن وصل إلي حيث رسول الله (ص) حتي وقع الأرض. فأمر رسول الله (ص) حتي وقع علي الأرض. فأمر رسول الله (ص) أن يسرعوا إليه بالماء . فقال أبوذر بصوت ضعيف: إن معي ماء فتبسم (ص) و سأله : أمعك الماء و أنت تشرف علي الهلاك عطشاً؟

فقال : يا رسول الله. عندما تذوقت الماء ، أحزنني أن أشرب منه قبل أن يشرب منه حبيبي رسول الله[33].

[33]. بحار الأنوار ج 21 ص 215 و 216 الطبعة الجديدة.

تري في أية مدرسة من مدارس العالم يمكن أن نعثر علي مثل هذا ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

نموذج آخر:

بلال الحبشي نموذج آخر من المدلهين بحب رسول الله (ص). كان طواغيت قريش في مكة يعذبونه أشد عذاب ... لا يطيقه إنسان . يرمونه علي الرمال المحرقة في الصحراء الملتهبة، و يطلبون منه أن يذكر آلهتهم بخير و أن يذكر محمداً بسوء. كان أبوبكر ينصحه بكتمان إسلامه، و لكنه لم يكن يطيق الكتمان . و قد أبدع الشاعر (رومي) في الإشارة إلي ذلك في قصيدة وردت في الجزء السادي من ديوانه (مثنوي).

نموذج آخر:

يذكر المؤرخون المسلمون حادثة شائعة معروفة من حوادث صدر الإسلام في غزوة الرجيع، و يوم الرجيع.

في السنة الثالثة من الهجرة جاء جمع من قبيلتي (عضل) و (القارة) – و هما تشتركان حسب الظاهر مع قريش في الأصول و تسكنان حوالي مكة – إلي رسول الله (ص) و قالوا :«لقد أسلم جمع منا، فنطلب إرسال عدد من المسلمين يشرحون لنا معني الدين و يعلومنا القرآن

و يفقهوننا في أصول الدين و تعاليم الإسلام ».

فأرسل معهم رسول الله (ص) ستة من أصحابه لذلك ، برئاسة رجل اسمه (مرثد بن أبي مرثد) و قيل إنه (عاصم بن ثابت).

وصل مبعوثو رسول الله مع أولئك الأعراب الذين كانوا قد قدموا إلي المدينة لهذا الغرض، و وصلوا إلي مكان نقطة قبيلة هذيل، فنزلوا ليلتهم هناك، و فيما كان رسل رسول الله (ص) يغطون في نومهم ، و إذا بجمع من أفراد قبيلة هذيل تغير عليهم بسيوف مصلتة. و اتضح أن الجمع الذي وفد إلي المدينة كان يبيت الخدعة منذ البداية، أو عند وصولهم إلي هذه المنطقة استولي عليهم الطمع فغيروا رأيهم.

علي كل حال، يبدو أن هؤلاء قد اتفقوا مع قبيلة هذيل علي أسر مبعوثي رسول الله (ص) . و ما إن أرك الرسل جلية الأمر حتي يادروا إلي أسلحتهم و امتشقوا سيوفهم للدفاع عن أنفسهم . إلا أن الهذليين أقسموا بأنهم لا ينوون قتلهم، و إنما يقصدون تسليمهم إلي قريش في مكة لقاء مبلغ من المال، و أنهم يعاهدونهم علي عدم قتلهم.

فقال ثلاثة من السنة، و كان منهم عاصم بن ثابت : إننا

لن نقبل أبداً بعار قبول عهد من مشرك. و قاتلوهم حتي قتلوا.

أما الثلاثة الآخرون ، و هم : زيد بن دثنة ، و خُبيب بن عدي و عبدالله بن طارق ، فقد أظهروا اللين و استسلموا.

فأويق الهذيلون وثاق هؤلاء الثلاثة و توجهوا إلي مكة. و قبيل وصولهم استطاع عبدالله بن طارق أن يحرر يديه من الوثاق و أن يصل إلي سفيه، إلا أن الأعداء لم يمهلوه بل قتلوه رجماً بالحجارة. و أخذوا زيداً و خبيباً إلي مكة و بادلوهما بأسيرين من هذيل كانا في مكة و عادوا من حيث أتوا.

فجاء صفوان بن أمية القرشي و اشتري زيداً ممن اشتراه ، قاصداً قتله انتقاماً لدم أبيه الذي كان قد قتا في أحد أو في بدر. فإخذوه إلي خارج مكة لقتله ، و اجتمع الناس لمشاهدة ما يجري.

جيء بزيد إلي موضع الأضاحي. فتقدم زيد بقدم ثابتة دون أن يظهر عليه أي تخاذل أو خوف، و كان أبوسفيان أحد الحاظرين ، فأراد أن يستغل هذه اللحظات الأخيرة من حياة زيد لعله يستطيع أن ينتزع منه كلمة ندم أو أسف أو إنكار لرسول الله (ص) تفقدم إليه و خاطبة قائلا:

«أحلفك بالله ، ألا تحب الآن أن يقف محمد موقفك فنضرب عنقه و نعيدك سالماً إلي زوجتك و أطفالك؟»

فقال زيد:

«أقسم بالله إني لا أحب حتي أن تشاك قدم محمد بشوكة و أنا أقيم بين أهلي و عيالي».

فقغر أبوسفيان فاه عجباً ، و التفت إلي قريش و قال: «و الله إني لم أر أصحاباً يحبون قائدهم كما يحب محمداً أصحابه».

و بعده فترة جاء دور خبيب بن عدي، فجاوا به ليصلبوه خارج مكة. و هناك طلب أن يمهلوه حتي يصلي ركعتين.

فسمحوا له ... فصلي ركعتين بكل خشوع و تشرع ثم خاطب الجمع قائلاً:

«الله لو لم أخش اتهامكم إياي بالخوف من الموت لصليت.»

و إذ أثقوا حبيباً إلي أعواد المشنقة، رفع صوته الرخيم المؤثر الذي نفذ إلي قلوب الحاضرين فألقي بعضهم أنفسهم علي الأرض من شدة الخوف و هم يستمعون الي حبيب بن عدي يناجي ربه:

«اللهم إنا قد بلعنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع

بنا. اللهم اخصهم عددا و اقتلهم بددا و لا تغادر منهم أحداً».[34]

نموذج آخر:

نعرف من التاريخ أن حرب أحد انتهت بما كان فيه الحزن و الأسي للمسلمين ، إذ استشهد فيها سبعون ألفاً من المسلمين و علي رأسهم حمزة عم النبي (ص). فقد انتصر المسلمون أؤل الأمر، و لكنهم بعد ذلك هوجموا علي آثر ترك المسلمين مرتفعاً كان رسول الله (ص) قد أمرهم بحراسته و عدم التخلي عنه. فقتل بعض و تشتت بعض و لم يبق إلا القليل حول رسول الله (ص) يدافعون عنه، و من ثم تمكنوا من وقف المشركين من التقدم . و مرة أخري استطاع ذاك النفر القليل من جمع شتات الجند و أوقفوا المشركين عند حدهم، و خاصة بعد شيوع خبر مقتل رسول الله (ص) الذي أضعف من تماسك المسلمين . و لكنهم ما إن عرفوا أن النبي (ص) ما يزال حياً حتي عادت قوة الإيمان إلي قلوبهم.

كان الجرحي مجندلين علي الأرض لا يعلمون بما يجري من حولهم. كان سعد بن الربيع بين الجرحي و يحمل في جسده إثني عشر جرحاً. و في غضون ذلك مر به أحد المسلمين

[34]. «سيرة ابن شهام » ج 2 ص 169 – 173.

الفارين و قال له : سمعت أن النبي قد قتل ، فقال سعد:

«أشهد أن محمداً قد بلغ رسالة ربه، فقاتل أنت عن دينك، فإن الله حي لا يموت».

و بعد أن جمع رسول الله جنده راح يتفقدهم واحداً واحداً ليعرف الحي من الميت منهم، فلم ير سعد بن الربيع ، فقال: «من رجل ينظر ما فعل سعد بن الربيع أفي الأحياء هم أم في الأموات؟ فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر يا رسول الله ما فعل . فنظر وجده جريحاً في رمقه الأخير. فأخبر أن النبي قد أرسله ليبحث عنه.

فقال سعد: فأبلغ رسول الله من السلام و قل له: إن سعد بن الربيع يقول: جزاك الله خيراً عنا ما جزي نبياً عن أمته، و أبلغ قومك السلام عني و قل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم: لا عذر لكم عند الله أن يخلُص إلي نبيك و منكم عين تطرف»[35].

إن صحفات تاريخ صدر الإسلام مليئة بنماذج من هذا الولع العجيب و الولاء الجميل. ليس في تاريخ البشر كله إنسان حظي بحب الرجال و النساء و الأصحاب و الكبار و الصغار كثل ما حظي به النبي الأكرم (ص) بحيث أنهم كانوا يحبونه إلي الحد الذي رأيت.

[35]. شرح ابن أبي الحديد، ط بيروت ، ج 3 ص 574. سيرة ابن هشام ، ج 2 ص 94.

يقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ما خلاصته:

«لم يكن أحد يسمع كلام رسول الله (ص) إلا و وقعت محبته في قلبه و مال إليه. لذلك فقد كان قريش يطلقون علي المسلمين في مكة اسم (الصباة) و كانوا يقولون : نخاف أن يصبوا الوليد بن المغيرة إلي دين محمد .و لئن صبا الوليد، و هو ريحانة قريش، لتصبون قريش بأجمعها . و كانوا يقولون : إن في كلام محمد لسحراً أشد فعلاً من الخمر. و كانوا ينهون أبناءهم عن مجالسته لئلا ينجذبوا إليه بسحر كلامه و يؤخذوا ببهاء طلعته.

عندما كان رسول الله (ص) يجلس في حجر إسماعيل بزواية الكعبة و يقرأ القرآن بصوت مرتفع، أو يذكر الله، كان المشركون يضعون أصابعهم فيس آذانهم لكيلا يسمعوه فيقعون تحت تأثير سحر كلامه و عذوبته يميلون إليه. و كانوا يغطون رؤوسهم و وجوههم بأرديتهم حتي لا يؤخذوا بسيماه الجذاب. لذلك كان أكثر الناس يقلبون علي الدخول في الإسلام بمجرد سماع كلامه و رؤية ملامحه و تذوق حلاوة ألفاظه»[36].

إن من بين حقائق الإسلام التأريخي، التي تثير إعجاب كل

[36]. شرح نهج البلاغة، ج 2 ص 220.

دارس للتاريخ و عالم بالإنسان و بالمجتمع ، ذلك الانقلاب الذي أحدثه الإسلام في حرب الجاهلية. فبموجب الموازين و الحسابات العادية و بالطريق المألوفة في التربية و التعليم، يطلب مجتمع كذاك إلي مضي زمان طويل حتي ينقرض الجيل القديم الذي أَلِفَ الرذائل و الفساد و يتربي جيل جديد مختلف. و لكننا هنا ينبغي ألا نغفل عن قوة الجذب و الانجذاب التي قلنا: إنها مثل ألسنة اللهب تحرق المفاسد من جذورها.

كان أغلب أصحاب رسول الله (ص) يعشقونه العشق كل العشق، و إن مطية الحب التي ركبوها هي التي طوت لهم ذلك الزمن الطويل في فترة قصيرة ، فغيروا مجتمعهم في أقصر وقت.

حب علي في القرآن و النسة

أظهرت البحوث السابقة قيمة الحب و أثره ، و اتضح من خلال ذلك أن حب الطيبين و سيلة لتهذيب النفس و ليس هدفاً بذاته. فانتظر الآن إن كان الإسلام و القرآن قد اختارا لنا حبيبا نمحضه الود، أم لا.

عندما يكرر القرآن أقوال الأنبياء السابقين نري أن كلاً منهم قد أعلن:

(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ).
و لكنه يأمر النبي (ص) أن يقول:

(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)[37].

[37]. سورة الشوري، الآية 23.

هنا يتبادر للذهن هذا السؤال: لماذا لم يطلب الأنبياء ؟؟؟؟ ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟أقربائه الأدنين؟.

القرآن نفسه يجيب علي هذا ا لسؤال بقوله:

(قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)[38].

أي إن ما طلبته من أجر إنما يعود نفعه عليكم، إذ أن هذه المودةليست سوي ذريعة تتوصلون بها إلي إصلاح ذواتكم و إلي التكامل الإنساني. هذا هو الأجر، و لكنه في الحقيقة خير آخر أعرضه عليكم، و ذلك لأن أهل البيت و ذوي قربي رسول الله (ص) أناس طاهر و الذيل غير ملوثين (حجور طابت و طهرات). فحبهم و التمسك بهم لا يعني سوي طاعة الله و التزام الفضائل. إن حبهم هو الإكسير الذي يقلب الأحوال و يوصل يكن المراد من لفظة «قربي» فهي لاشك تشمل علياً.

يقول الفخر الرازي: «يروي الزمشخري في (كشافه):

[38]. سورة سبأ، الآية 47.

عندما نزلت هذه الآية ، سئل النبي: يا رسول الله ، من هم ذوو القربي الذين يجب علينا حبهم؟ فقال (ص) علي و فاطمة و ابناهما. يتضح من هذه الرواية أن هولاء الأربعة هم أقرباء النبي الذين علي الناس أن يمحضوهم الحب و الولاء. و هذا ما يمكن إثباته من عدأ طرق:

1 – آية (إلا المودة في القري).

2 – ما من شك في أن رسول الله (ص) كان يحب فاطمة حباً جماً، و كان يقول: فاطمة بضعة مني، يؤذيني ما يؤذيها. و كذلك كان يحب علياً و الحسنين، و قد وردت في هذا روايات كثيرة.

و عليه فإن حبهم فرض علي الأمه أجمعين [39]، لأن القرآن يقول: (وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)[40]. و يقول أيضاً: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)[41]. كل هذا يدل علي

[39]. إن حب النبي لهم لم يكن حباً شخصياً فحسب، و لمجرد كونهم أبناءه و أنه لو كان آخرون غيرهم بمكانهم لأحبهم النبي أيضاً. بل كان النبي يحبهم لكونهم كانوا نماذج متميزين يحبهم الله، فقد كان النبي للنبي آبناء آخرون ، و لكنه لم يكن يحبهم إلي هذا الحد، و لا كان حبهم فرضاً علي الناس.

[40]. سورة الأعراف، الآية 158.

[41]. سورة الأحزاب، الآية 21.

أن حب آل محمد – و هم علي و فاطمة و الحسنان. و اجب علي ؟؟؟؟؟[42].

و هناك أحاديث شريفة كثيرة بشأن حب علي 0ع):

1 – يذكر ابن الأثير أن النبي خاطب علياً بقوله : «يا علي، إن الله عزو جل قد زينك بزينة لم يتزين العباد بزينة أحب إليه منها، الزهد في الدنيا ، فجعلك لا تنال من الدنيا شيئاً و لا تنال الدنيا منك شيئاً، و وهب لك حب المساكين و رضوا بك إماماً و رضيت بهم أتباعاً فطوبي لمن أحبك و صدق فيك، و ويل لمن أبغضك و كذب عليك، فأما الذين أحبوك و صدقوا فيك فهم جيرانك في دارك و رفقاؤك في قصرك، و أما الذين أبغضوك و كذبوا عليك فحق الله أن يوقفهم مواقف الكذابين يوم القيامة»[43].

2 – يروي السيوطي أن النبي (ص) قال:

«يا علي، لا يحبك إلا مؤمن ، و لا يبغضك إلا منافق»[44].

---

[42]. ((التفسير الكبير) للرازي ، طبعة مصر، ج 27 ص 166.
[43] . (أسد الغابة) ج 4 ص 23.
[44]. (كنز العمال) و (جمع الجوامع) للسيوطي ، ج 6 ص 156.

3 – يروي أو نعيم أن النبي (ص) خاطب الأنصار قائلاً:

«يا معشر الأنصار، ألا أدلكم علي ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعده أبداً؟ قالوا : بلي يا رسول الله ، قال: هذا علي فأحبوه بحبي و أكرموه بكرامتي، فإن جبريل أمرني بالذي قلت لكم من الله عزوجل»[45].

و ثمة روايات أوردها أهل السنة عن رسول الله (ص) أنه قال :«إن النظر إلي وجه علي عبادة، و الحديث عن فضائل علي عبادة».

1 – ينقل المحب الطبري عن عائشة أنها قالت: «رأيت أبي كثير النظر إلي وجه علي ، فقلت له: أراك يا أبي كثير النظر إلي وجه علي. فقال: بنيتي، لقد سمعت رسول الله (ص) يقول: النظر إلي وجه علي عبادة»[46].

2 – أخرج الديلكي عن عائشة أن رسول الله (ص) قال:

[45]. حلية الأولياء ، ج 1 ص 63. و مثل هذا روايات كثيرة. و قد صادفنا في كتب أل السنة المعتبرة أكثر من تسعين رواية بهذا المعني. أضف إلي ذلك ورد في كتب الشيعة.

[46]. (الرياض النظرة) ج 2 ص 219 و غيرها كثير صادفنا منها أكثر من 20 رواية.

«خير إخوتي علي، و خير أعملمي حمزة. و ذكر علي عبادة»[47].

لقد كان علي أحب الخلق عند الله و رسوله ، و لا شك في هذا.

يقول أنس بن مالك:

«في كل يوم كان أحد أبناء الأنصار يقوم علي خدمة رسول الله (ص). و في يوم نوبتي جاءت أم أيمن بطعام من دجاج محمر و قالت: يا رسول الله، لقد ابتعت هذه الدجاجة و طبختها بنفسي. فقال رسول الله : اللهم ابعث إلي بأحب عبيدك ليشاركني في تناول هذا الطعام.

و في تلك اللحظة طرق الباب . فقال رسول الله : يا أنس افتح الباب . فقلت في نفسي: أعود الله أن يكون من الأنصار. و لكني رأيت علياً عند الباب. فقلت : رسول الله مشغول. وعدت إلي حيث كنت.

فطرق الباب ثانية. فقال رسول الله: افتح الباب. فعدت أدعوا الله أن يكون الطارق من الأنصار. و فتحت الباب و إذا

[47]. (الصواعق المحرقة) ص 74. و هناك خمس روايات أخري بهذا المعني في كتب أهل السنة الموثقة.

بعلي. فقلت: إن النبي مشغول . و عدت إلي مكاني.

فطرق الباب مرة أخري. فقال رسول الله : يا أنس، افتح الباب وأت به، فلست أنت أول من أحب قومه، و لكنه ليس من الأنصار. ففتحت الباب و أدخلت علياً، فجلس يأكل مع رسول الله (ص)[48].

[48]. (مستدرك الصحيحين) ج 3، ص 131. هذه الرواية نقلت بصورة مختلفة في أكثر من 18 رواية في كتب أهل السنة.

سر حب علي

ما سبب وقوع حب علي في القلوب؟

سر الحب لم يكتشف لحد الآن ، أي لا يمكن حصره ضمن قانون معين، بحيث يمكن القول انه إذا حصل كذا يحصل كذا، إلا أن في الحب – و لا شك – سراً. فقد يكون في المحبوب شيء يغشي بصر المحب فيجذبه إليه. و إذا ما اشتد هذا الجذب و الرتفع الحب إلي أعلي الدرجات ، قيل : إنه العشق. و لقد كان علي محبوب القلوب و معشوق الناس، فلماذا؟ و كيف؟

فيم امتياز علي بحيث أثار العشق فولهت به القلوب، فاصطبغ بصبغة الحياة الخالدة؟

لماذا تري القلوب أنها شديدة القرب منه، و لا تحسبه قد مات، بل تراه حياً يرزق؟

لا شك أن مبعث الحب فيه ليس جسمه، لأن جسمه لم يعد الآن ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟.

الأبطال الشائع في كل الأمم... كما نكون قد جانبنا الصواب إن قلنا: إن حبنا علياً تابع لحبنا الفضائل الأخلاقية و الإنسانية، و إن حب علي هو حب الإنسانية... صحيح أن علياً كان تجسيداً للإنسان الكامل، و صحيح أن الإنسان يجب مثل الإنسانية السامية.

و لكن بو أن جميع الفضائي التي امتاز بها علي من الحكمة، و العلم ، و التضحية، و نكران الذات ، و التواضع و الأدب ، و المحبة، و العطف، و الأخذ بيد الضعيف ، و العدابة، و الحرية ، و احترام الإنسان و الإيثار، و الشجاعة، و المروءة، و الفتوة نحو العدو، و السخاء و الجود و الكرم.

أقول: لو أن كل ما تحلي به علي من الفضائل لم يمن مصطبغالً بالصبغة الآلهية، لمكا كا علي هذا القدر الذي نراه عليه اليوم من استثارة للانفعال و اجتذاب للحب و فعلي محبوب لكونه مرتبطاً بالله. إن قلوبنا ترتبط في أعماقها ، و بغير وعي منا، بالله.

و لما كان علي آية الله العظمي و مظهر صفات الله في

أعيننا، فقد عشقناه ... في الحقيقة إن سند حب علي هو ما يربط النفوس بالله ، ذلك الرابط الذي كان في الفطرة دائماً.

و لما كانت الفطرة خالدة، فحب علي خالد أيضاً.

سودة الهمدانية المحبة لعلي وقفت أمام معاوية تصف علياً فقالت:

صلي الإله علي روح تضمنها

قبر فأصبح فيه العدل مدفونا

قد حالف الحق لا يبغي به بدلاً

فصار بالحق و الإيمان مقرونا

صعصعة بن صوحان العبدي واحد آخر من المولعين بعلي كان من القلة الذين حضروا دفن علي في ذلك الليل اليهيم. و بعد أن تم الدفن وقف صعصعة علي القبر واضعاً إحدي يديه علي فؤاده و الأخري قد أخذ بها التراب و يضرب رأسه ، ثم قال:

«بأبي أنت و أمي – يا أمير المؤمنين – هنيئاً لك يا أبا الحسن، فلقد طاب مولدك، و قوي صبرك ، و عظم جهادك ، و ظفرت برأيك، و ربحت تجارتك ، و قدمت علي خالقك ، فتلقاك الله ببشارته ، و حفتك ملائكته، و استقررت في جوار المصطفي، فأكرمك الله بجواره ، و لحقت بدرجة أخيك

المصطفي ، و شربت بكأسه الأوفي، فاسأل الله أن يمن علينا باقتفائنا أثرك و العمل بسيرتك ، و الموالاة لأوليائك ، و المعاداة لأعدائك، و أن يحشرنا في زمرة أولئك.

فقد نلت ما لم ينله أحد، و أدركت ما لم يدركه أحد، و جاهدت في سبيل ربك بين يدي أخيك المصطفي حق جهاده ، و قمت بدين الله حق القيام ، حتي أقمت السنن، و أبرت الفتن، و استقام الإسلام ، و انتظم الإيمان ، فعليك مني أفضل الصلاة و السلام.

بك اشتد ظهر المؤمنين ، و اتضحت أعلام السبل، و أقيمت السنن، و ما جمع لأحد مناقبك و خصالك. سبقت إلي إجابة النبي (ص) مقدماً مؤثراً، و سارعت إلي نصرته، و وقيته بنفسك ، و رميت سيفك ذا الفقار في مواطن الخوق و الحذر، قصم الله بك كل جبار عنيد ، و ذلك بك كل ذي بأس شديد، و هدم بك حصون أهل الشرك و الكفرو العدوان و الردي، و قتل بك أهل الضلال من العدي.

فهنيئاً لك يا أمير المؤمنين . كنت أقرب الناس من رسول الله (ص) قرباً و أولهم سلماً و أكثر هم علماً و فهماً، فهنيئاً لك يا أبا الحسن، لقد شرف الله مقامك ، و كنت أقرب الناس إلي رسول الله (ص) نسباً، و أولهم إسلاماً، و أوفاهم يقيناً، و أشدهم قلباً، و أبذلهم لنفسه مجاهداً و أعظمهم في الخير نصيباً.

فلا حرمنا الله أجرك ، و لا أذلنا بعدك، فوالله لقد كانت حياتك مفاتح للخير و مغالق للشر، و إن يومك هذا مفتاح كل شر و مغلاق كل

خير. و لو أن الناس قبلوا منك لأكلوا من فوقهم و من تحت أرجلهم ، و لكنهم آثروا الدنيا علي الآخرة».[49]

نعم، لقد اختاروا الدنيا لأنهم لم يستطيعوا الوقوف مع عدل علي و استقامته حتي ظهرت أيدي الجمود الفكري من الأكمام و قتلت عليّاً.

ليس لعلّي (ع) نظير حيث من كونه موضع حب عارم من لدن أناس ضحوا بروؤسهم في سبيل حبه، و ارتقوا المشانق في سبيل الولاء له. إن الصفحات العجيبة التي كتبها هؤلاء في التاريخ لثير الحيرة و الدهشة، و هي مفخرة من مفاخر تاريخنا.

إن دماء هذه النخبة تلطخ أيدي مجرمين أرجاس مثل زياد بن أبيه و ابنه عبيدالله و الحجاج بن يوسف و المتوكل، و عي رأسهم معاوية بن أبي سفيان.

[49]. (بحار الانوار) ج 42 ص 295 و 296 الطبعة الجديدة.

(2)

قوة دافعة علي

- علي يصنع الأعداء.
- الناكثون و القاسطون و المارقون.
- ظهور الخوارج.
- الخوارج و الخلافة.
- الخوارج و الخلفاء.
- انقراض الخوارج.
- أشعار أو روح؟
- الخوارج و ديمقراطية علي.
- قيام الخوارج و طغيانهم.
- سمات الخوارج.
- سياسة رفع القرآن علي الرماح.
- ضرورة مكافحة النفاق و أهميتها.
- علي الإمام و القائد الحق.

علي يصنع الأعداء

سوف نقصر بحثنا هذا علي فترة خلافته التي امتدت أربع سنوات و بضعة أشهر. كان علي دائماً تلك الشخصية ذات القوتين، قوة الجذب و قوة الدفع. فمنذ صدر الإسلام نري مجموعة من الناس يتحلقون حوله، و نري آخرين ليسوا علي وفاق تام معه، و قد يعانون الأمرين من وجوده.

و لكن زمن خلافته و الأزمنة التي تلت استشهاده ، تعتبر فترة ظهور علي تاريخياً و فيها تتجلي قوتا الجذب و الدفع عنده، و هما يزدادان قوة كلما قوي احتكاكه بالناس، مثلما كانت أضعف قبل خلافته.

كان علي من الذين يصطنعون الأعداء و يوجدون المتمذمرين. و كان هذا من مفاخر علي الكبري. إن كل امريء يسلك سلوكاً معيناً و له هدف يناضل من أجله، و علي الأخص

إذا كان ثورياً يسعي لتحقيق أهدافه المقدسة و من الذين يصفهم الله تعالي بقوله :

(يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ)[50].

لابد أن يكون كذلك. لذلك فإن أعداءه – و علي الأخص في فترة حياته – لم يكونوا أقل عدداً من أصحابه ، إن لم يكونوا أكثر.

و اليوم، إذا أُبرزت شخصية علي – بغير تحريف – علي حقيقتها، فإن الكثيرين ممن يدعون محبته ينحازون إلي صفوف أعدائه.

بعث رسول الله (ص) عليّاً علي دأس جيش إلي اليمن. و عند العودة عزم علي لقاء النبي في مكة. و عندما اقترب من مكة لملاقاة رسول الله (ص) بعد أن أقام علي العسكر رجلاً منهم.

فقام هذا بتوزيع الحلل التي كانت مع الجيش علي الجنود لكي يدخلوا مكة قيشيبة. و لكن علياً عند عودته اعترض علي هذا العمل و اعتبره منافياً للانضباط، لأن الواجب يقضي بالحصول علي أوامر النبي (ص) بشأن تلك الحلل قبل

[50]. سورة المائدة ، الآية 54.

التصرف فيها. و كان ذلك – في الحقيقة – يعتبر في نظر عليّ تصرفا في بيت المال قبل أخذ موافقة قائد المسلمين.

لذلك أمر علي الجند بخلع تلك الحلل و إرجاعها إلي حيث كانت، حتي يري رسول الله (ص) رأيه في توزعها . إلا أن هذا لم يرق لأفراد الجيش، و ما إن وصلوا مكة و إخذ رسول الله (ص) يسألهم عن أحوالهم ، حتي شكوا إليه علياً و خشونته بشأن الحلل.

فوقف رسول الله (ص) و خاطبهم بقوله:

«أيها الناس لا تشكوا علياً، فوالله ،إنه لأخشن في ذات الله من أن يشكي».[51]

لم يكن علي يحابي أحداً في الله، بل إنه كان إذا راعي أحداً أو داراه فإنما كان ذلك في سبيل الله . و هذا – لا ريب – يخلق الأعداء و يملأ بالألم قلوب الذين امتلأت قلوبهم بالطمع و الجشع.

لم يكن بين أصحاب رسول الله (ص) من له محبون مضحون ، كما لم يكن بينهم من له أعداء الداء شديد و الخطر

[51]. (سيرة ابن هشام) ج 4 ص 250.

مثلما كان لعليّ، كان عليّ رجلاً هاجمه أعداؤه حتي في جنازته و هو ميت .

و كان نفسه دارياً و قد تنبأبه . لذلك أوصي أن يُعَفّي علي قبره حتي لا يعرفه أحد غير أبنائه ، إلي أن مضي علي ذلك قرن من الزمان، و زال الأمويون ، و انقرض الخوارج أو ضعف بأسهم ، و ضمرت مشاعر الحق و لاانتقام في القلوب... عند ذلك أعلن ابنه الإمام جعفر الصادق (ع) عن مكان مدفنه الشريف.

الناكثون و القاسطون و المارقون

دفع علي أثناء خلافته ثلاث طوائف و طردهم و كافحهم.

أصحاب الجمل و قد اطلق عليهم اسم الناكثين.

و اصحاب صفين الذي قال عنهم: إنهم القاسطون .

و أصحاب النهروان ، و هم الخوارج الذين وصفهم بأنهم المارقون[52]:

«فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، و مرقت أخري، و قسط آخرون»[53].

[52]. الواقع إن رسول الله (ص) هو الذي أطلق عليهم تلك الأسماء ، إذ قال لع: ستقاتل بعدي الناكثين و القاسطين و المارقين. هذه الرواية يذكرها ابن أبي الحديد في شرحه نهج البلاغة (ج 1 ص 201) و يقول : إن هذه الرواية إحدي أدلة نبوة رسول الله (ص) لأنها إخبار صريح بالمستقبل و بالغيب مما لا يجري معه أي تأويل.

[53]. نهج البلاغة، الشقيقية، خ 3.

كان الناكثون – من حيث طبيعتهم – محبي المال، من ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟و المساواة موجه في أغلبه إلي هؤلاء.

أما لاقاسطون فكانوا من ذوي الميول السياسية من المنافقين . كانوا يسعون للاستيلاء علي زمام الحكم للقضاء علي حكومة الإمام عليّ وقيادته . عرض عليه بعضهم أن يحاريهم و يساويهم و يحقق بعض طلباتهم ... فرفض ، لأنه لم يكن علي تلك الشاكلة. كان قد اضطلع بالأمر لإحقاق الحق و محق الظلم، لا لتأييد الظلم و ترويجه . و كان معاوية و صحبه – من جهة أخري – لا يرتضون الأسس التي أقام عليّ عليها حكمه. كانوا يريدون أن يكون لهم – وحدهم – كرسي الخلافة الإسلامية، فكانت مقاتلة علي هؤلاء بمثابة مقاتلة النفلق و الرياء.

أما الطائفة الثالثة المارقة فقد كانوا شديدين في التعصب الديني الأعمي و من الجهلة الخطرين.

هؤلاء، كلهم كانت دافعة علي شديدة عليهم بحيث ما كان يمكن أن يتساهل معهم أبداً.

إن من بعض مظاهر إنسانية علي الكاملة ، هي أنه عندما بدأ بالعمل الإيجابي واجه طوائف متعددة و انحرافات متنوعة،

فحاربها كلها. فمرة نراه يقف بوجه عبدة المال و محبي الدنيا، و مرة نراه يصارع محترفي السياسة ممن لهم عشرة أوجه و مائة وجه، و مرة يكون صراعه مع الجهلة المنحرفين من ذوي الظاهر المتدين.

ننعطف ببحثنا الآن إلي هذه الفئة الأخيرة، الخوارج ، فهؤلاء، و إن يكن أمرهم قد انتهي، إلا أن لهم اريخاً جديراً بالدرس و الاستعبار، كما أن لأفكارهم جذوراً امتدت إلي سائر المسلمين . فبعد هذه القرون الاربعة عشر الطويلة، و بعد زوال أشخاصهم و حتي اسمائهم ما زالت روحهم متفشية في هياكل هؤلاء المتدينين الجامدين الذين يقفون حجر عثرة في طريق تقدم الاسلام و مسلمين.

ظهور الخوارج

كلمة (الخوارج) تعني المتمردين ، و هي من (خرج)[54] التي تأتي مع حرف الجر (علي). و قد ظهر هؤلاء من بين

[54]. خرج فلان علي فلان: برز لقتاله . و خرجت الرعية علي الملك: تمردت . و تعبير (الخوارج) يقصد به المعني الثاني، لأنهم خرجوا علي عليّ إبّان حكمه و تمردوا عليه. و بما أنهم أقاموا تمردهم ذاك علي أساس ديني، فقد أصبحوا نِحلة و لصق اسم الخوارج بهم و لم يطلق علي الذين خرجوا بعدهم علي سلطان زمانهم.
و لو لم يكن للخوارج مدرسة و عقائد خاصة لمضوا مثل لسائر المتمردين بعدهم. إلا أنهم كانت لهم معتقداتهم ، و هذه غدت فيما بعد ذات موضوع قائم بذاته ، علي الرغم من أنهم لم ينجحوا أبداً في تأسيس حكم و حكومة، و لكنهم نجحوا في تأسيس ميدان فقهي و أبي لعقائدهم . (راجع «ضحي الإسلام» ج 3 ص 340 – 347 ط 6).
كان هناك آخرون ممن لم تتح لهم فرصة الخروج و إن كانوا من الخوارج عقيدة، كالذي يقال عن عمرو بن عبيد و بعض آخر من المعتزلة . إن بعض المعتزلة الذين كانوا يعتقدون بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، أو في خلود مرتكب الكبائر – كما يعتقد الخوارج – كانوا يعبرون عنهم بأهم «يرون رأي الخوارج» بل لقد كان هناك عدد من النسوة يؤمن بأفكار الخوارج ، كما جاء في (الكامل) للمبرد ، ج 2 ص 154.
و عليه ، فإن بين مفهوم كلمة (الخوارج) اللغوي و مفهومها الاصطلاحي عموم من وجه.

فأمر برفع المصاحف علي رؤوس الرماح _ إشارة إلي كونهم مسلمين و من أهل القبلة و القرآن – مطالبين بوضع القرآن حكماً بينهم . لم يكن هذا شيئاً جديداً، فقد سبق للإمام علي أن اقترحه عليهم فرفضوه ، و هم كانوا ما يزالون يرفضونه ، إلا أنهم اتخذوه ذريعة ينجون بها من الهزيمة المنكرة.

و راح علي ينادي أن اضربوهم فهم يتخذون من صفحات القرآن ذريعة يدرأون بها عن نفسهم الهلاك، و بعد ذلك يبقون في غيهم سادرين . إن صفحات القرآن من حيث كونها ورقاً لا قيمة لها بإزاء حقيقة القرآن . إنني أنا حقيقة القرآن و مظهره . و هؤلاء

يرفعون ورقاً و خطاً لكي يقضوا علي المعني و الحقيقة.

و تنادي عدد من جنود علي ممن جهلوا حقيقة الدين – و لم يكونوا قلة – ماذا يقول عليّ؟ أنحارب القرآن؟ إننا حاربنا لأحياء القرآن ، و هاهم يستسلمون له ، فلماذا الحرب بعد ذلك؟ و قال علي: أنا أيضاً أقول حاربوا من أجل القرآن ، و لكن هؤلاء لا شأن لهم بالقرآن، بل يتخذون لفظ القرآن و كتابته وسيلة لحفظ أرواحهم.

في كتاب الجهاد من الفقه الإسلامي موضوع تحت عنوان «تترس الكفار بالمسلمين». و يكون هذا في حالة حرب المسلمين مع الكفار، فيعمد الكفار إلي وضع أسري المسلمين في الخطوط الأمامية يتترسون بهم ليتقدموا هم إلي الامام ، بحيث أن المسلمين إذا أرادوا الدفاع عن أنفسهم أو الهجوم علي العدو لوقف تقدمه، سيكون عليهم بالضرورة أن يزيحوا من طريقهم إخوتهم المسلمين الأسري . أي أنهم لن يكونوا قادرين علي الوصول إلي العدو المحارب إلا بقتل أولئك المسلمين ، فإن الإسلام يجيز هنا قتل المسلم في سبيل مصلحة الإسالم العليا و في سبيل حفظ بقية المسلمين.

و دولئك أيضاً يعتبرون من الشهداء الذين استشهدوا في سبيل الله ، إلا أن علي المسلمين أن يدفعوا دية دمائهم إلي

ذويهم من بين مال المسلمين[55].

و هذا لا يختص به الفقه الإسلامي ، بل هو من الأمور المسلم بها في القوانين الدولية التي تقول: إذا استخدم العدو القوي الداخلية لمصلحته ، فيجوز القضاء علي تلك القوي للتمكن من العدو و إجباره علي الانسحاب.

ففي الوقت الذي يقول فيه الإسلام: اضرب حتي المسلم الحي ليتحقق النصر لإسلام ، لا يكون ثمة داع للكلام علي مجرد أوراق و صحائف... إن احترام الورق و ما كتب عليه يكون بسبب احترام المعني و المحتوي. و كانت تلك الحرب في سبيل المحتوي، و لكن هؤلاء جعلوا الورق وسيلة لكي يزيلوا المعني و المحتوي من الوجود.

و لكن الجهل و السذاجة حالا – كما يحول الستار السميك – دون رؤيتهم الحقيقة الواضحة ، و قالوا: إننا فضلاً عن كوننا لا نحارب القرآن، فإن علينا أن نقف بوجه من يقدم علي هذا المنكر و أن ننهي عنه، فنقاتل من يقاتل القرآن.

لم يكن قد بقي علي النصر النهائي إلا ساعة، و كان مالك الأشتر، ذلك الجندي الشجاع المضحي، يوالي تقدمه نحو

[55]. (اللمعة) ج 1 ، كتاب الجهاد، الفصل الأول. و (الشرائع) كتاب الجهاد.

خمية القيادة ليستولي عليها و يزيل آخر شوكة من طريق الإسلام. في تلك اللحظة ضغطت تلك الطائفة علي عليّ و هددوا بأنهم سوف يهجمون عليه من الخلف إذا لم يوقف الحرب. و كلما أصر عليّ علي رأيه ازداد أولئك إصراراً علي رأيهم.

أرسل عليّ إلي مالك أن أوقف الحرب و اترك الميدان. فرد عليه بأنه لو أجاز له الاستمرار بضع دقائق لأنهي الحرب و أنهي العدو معاً.

فشهروا السيوف قائلين سنقطعك إرباً إرباً أو تأمره بالرجوع.

فعاد يرسل إليه إنك إن شئت أن تري علياً حياً فاترك الحرب وعد. فرجع مالك، و استبد الفرح بالعدو لأن حيلته قد انطلت.

توقفت الحرب حتي يحتكموا إلي القرآن ، فيؤلفوا لجنة التحكيم و يحكم حكام الجانبين بما في القرآن و السنة مما يتفق عليه الجانبان ، لتنتهي الخصومة، او ليزيدوا الاختلافات اختلافاً آخر.

قال عليّ: فليعيّنوا حَكمَهم كي نعيّن – نحن أيضاً – حَكمَنا.

فعين أولئك بالإجماع عمر و بن العاص، عصارة الخديعة و المخاتلة.

و اقترح علي عبدالله بن عباس السياسي ، أو مالكاً الأشتر المؤمن المضحي ذا البصيرة، أو أي رجل من أمثالهما.

إلا أن اولئك الحمقي كانوا يفتشون عن ضريب لهم، فانتخبوا أبا موسي الأشعري الذي كان قليل التدبير ، كما لم يكن علي وفاق تام مع علي (ع). و كلما حاول عليّ و أصحابه أن يبينوا لأولئك الناس أن أبا موسي لم يكن الرجل القادر علي ذلك الأمر، أبوا و قالوا: لن نرضي عنه بديلاً. فقال: ما دام الأمر كذلك، فافعلوا ما بدا لكم . فأرسلوه حكماً يمثل علياً و أصحابه إلي مجلس التحكيم.

و بعد أشهر من التشاور، انتهي الأمر بعمرو بن العاص أن يقول لأبي موسي الأشعري: أري خير المسلمين في إقالة علي و معاوية كليهما من الحكم ، و ننتخب ثالثاً، و لن يكن سوي عبدالله بن عمر، صهرك فقال أبو موسي: صدقت، فما العمل؟ فقال: تخلع أنت علياً من الخلافة ، و أخلع أنا معاوية. و بعد ذلك سيختار ا لمسلمون خليفة لهم،و لن يكون غير صهرك عبدالله بن عمر، فتنام الفتنة و تقتلع جذورها.

و تم اتفاقهما علي هذا الأمر، و نادي مناديهم في الناس أن

اجتمعوا لتستمعوا إلي الحكم النهائي.

واجتمع الناس، و التفت أبو موسي إلي عمرو بن العاص و طلب إليه أن يصعد المنبر ليعلن رأيه. فقال عمرو : كيف أصعد المنبر قبلك و أنت الشيخ الوقور من أصحاب رسول الله (ص): حاش الله أن تبلغ بي الجرأة هذا الحد فأتكلم قبلك.

فنهض ابوموسي و ارتقي المنبر، و القلوب تدق بعنف في الصدور، و العيون تكاد تخرج من محاجرها نحو الخطيب، و الأنفاس تكاد تتوقف مبهورة انتظاراً للتنجية. و تكلم أبوموسي فقال: إننا بعد التشاور رأينا أن من صلاح الأمة أن لا يبقي عليّ و لا معاوية. و أن المسلمين لهم الخيار في اختيار من يشاؤون للخلافة. ثم خلع خاتمة من إصبع يده اليمني و قال: إنني أخلع علياً عن الخلافة كما أخلع خاتمي هذا من اصبعي. و نزل عن المنبر...

قام عمرو بن العاص و ارتقي المنبر و قال: إنكم سمعتم قول أبي موسي الأشعري في كونه خلع علياً عن الخلافة. أنا أيضاً أخلعه عن الخلافة كما خلعه أبوموسي. ونزع خاتمه من يده اليمني و ألبسه أصبع يده اليسري و هو يقول: و أنصب معاوية للخلافة مثلما أضع الخاتم في إصبعي هذا. و نزل عن المنبر.

هنا أدرك الخوارج – الذين أوجدوا هذا الأمر بأنفسهم – مدي الخطأ فيما فعلوا . و لكنهم لم يكونوا يدركون أين كان موضع الخطأ. لم يقولوا: إن خطأنا يمكن في قبولنا الاستسلام لخديعة عمروبن العاص و في إيقافنا الحرب. كما أنهم لم يقولوا: إن خطأنا بعد القبول بالتحكيم كان في اختيار (الحكم) بجعلنا أبا موسي نداً لعمرو بن العاص. بل كانوا يقولون : إن جعلنا إنسانين حكمين في دين الله كان كفراً و مخالفاً للشرع ، فلا حكم إلا لله.

جاءوا إلي علي و قالوا : لقد أخطأنا و قبلنا بالتحكيم ، فأصبحنا نحن و أنت من الكافرين. إننا تبنا إلي الله، فتب أنت أيضاً، فقد تضاعفت مصيبتنا.

فقال علي: التوبة خير و لا بأس بها. أستغفرالله من كل ذنب.

فقالوا: هذا لا يكفي، بل عليك أن تعترف بأن التحكيم كان إثماً و أنك تتوب من هذا الاثم.

فقال: إنني لم أقل بالتحكيم و لا طلبته. أنتم الذين أردتموه ، و ها أنتم تشاهدون النتيجة ، ثم كيف أقول بحرمة شيء لم يحرمه الإسلام و أعتبره إثماً ، ثم أعترف بذنب لم أرتكبه؟!

هنا بدأ نشاط هؤلاء كفرقة دينية. كانوا في البداية فرقة باغية متمردة، و لهذا أطلق عليهم اسم الخوارج ، و لكنهم شيئاً فشيئاً وضعوا لعقائدهم أصولاً و قواعد ، و انتظموا في حزب كان سياسياً أول الأمر ثم أصبح فرقة دينية ثم انتقل الخوارج إلي القيام بنشاطهم كأصحاب مذهب ديني وراحوا يدعون له.

ثم بعد ذلك فكروا في ضرورة اكتشاف جذور المفاسد في دنيا الإسلام ، فتوصلوا إاي القول بأن عثمان و علياً و معاوية قد أخطأوا و أثموا ، و أن عليهم أن يكافحوا الفساد الذي ظهر، و أن يأمورا بالمعروف و ينهوا عن المنكر. و هكذا ظهر مذهب الخوارج باسم الأمر باملعروف و النهي عن المنكر.

إن في فريضة الأمر باملعروف و النهي عن المنكر شرطين رئيسين، الأول: البصيرة في الدين، و الثاني: البصيرة في العمل.

و قد جاء في الروايات أن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، مع فقدان البصيرة في الدين ، يكون ضرره آكثر من نفعه. أما البصيرة في العمل فهي لازمة للشرطين الواردين في الفقه باسم «احتمال التأثير» و «عدم ترتب مفسدة» و مرجع الحكم في هذين يعود إلي العقل و المنطق.[56]

---

[56]. أي ان القصد من الأمر باملعروف و النهي عن المنكر هو الترويج «للمعروف» و إزالة «المنكر» .و عليه ، فالأمر باملعروف و النهي عن المنكر ينبغي القيام بهما عند وجود الاحتال بترتب أثر علي ذلك . فإذا قطعنا بعدم وجود أي احتمال بترتب أي أثر عليهما ، فما وجه الوجوب في القيام بهما؟

ثم إن أصل تشريع هذه الفريضة هو القيام بما يؤدي إلي تحقق فائدة للمسلمين ، فلابد من القيام بها بحيث لا تؤدي إلي مفسدة أكبر من التي أريد النهي عنها. هذان الظرفان تلزمهما البصيرة في العمل. فالذي لا يملك البصيرة في العمل لا يستطيع أن يتنبأ بما إذا كان سيتريث علي ذلك العمل أثر أم لا . من هنا جاء في الحديث إن الأمر بالمعروف غير البيصير أفساده أعظم أصلاحه.

إن احتمال ترتب الفائدة لم يشترط في الفروض الأخري، و إنه إذا وجد احتمال الأثر فليفعل، و إلا فلا، علي الرغم من أن في أداء كل فريضة نفعاً، إلا أن تشخيص ذلك النفع ليس من مسؤولية المكلف... ففي الصلاة لم يقبل الشرع : إنك إذا احتملت فيها فائدة فصل، و إن لم تحتمل فلا تصل. كذلك الصوم ، لم يقل أحد: إذا احتملت فيه فائدة فصم، و إن لم تحتمل فلا تصم، اللهم إلا القول بخصوص الصوم: إنك إن احتملت فيه الضرر فلا تصم. إذن، لا وجود لشرط احتمال الأثر في الفروض الأخري مالحج و الزكاة و الجهاد. و لكن هذا القيد موجود في باب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، فمن الواجب معرفة ما يحتمل أن يكون له من أثر ورد فعل ، و ما إذا كان في القيام به مصلحة للمسلمين و للإسلام أم لا. أي إن إدراك وجود الأثر يقع علي عاتق المنفذ نفسه.

في القيام بهذه الفريضة ، لكل فرد – بل من الواجب عليه – أن يشرك العقل و المنطق و البصيرة في العمل لمعرفة فائدته لأن هذه الفريضة ليست تعبدية. إن وجود شرط إعمال البصيرة في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر متفق عليه بإجماع الفرق الإسلامية، باستثناء الخوارج الذين ظلوا علي جمودهم الفكري و جفافهم و تعصبهم في القول بأن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر فريضة تعبدية، و ليس فيها شرط احتمال الأثر و عدم ترتب مفسدة، بل هي فريضة يجب القيام بها بغير جدل أو كلام. و هكذا كان هؤلاء يثورون أو يغتالون الأشخاص استناداً إلي عقيدتهم هذه ، علي الرغم من معرفتهم بعدم جدوي ذلك، و بأن دماءهم تذهب هدراً.

غير أن الخوارج كانوا بفترقون إلي البصرتين الدينية

و العلمية. كانوا أناساً جهلة لا بيصيرة عندهم بشيء ، بل كانوا يرون هذه الفريضة من الفرائض التعبدية، و كانوا يقولون: إنه يحب القيام بذلك قيماماً أعمي.

أصول عقائد الخوارج

يرجع أصل فكرة الخوارج إلي الأمور التالية:

1 – تكفير عليّ و عثمان و معاوية و أصحاب الجمل و أصحاب التحكيم – الذين يرتضون التحكيم عموماً – إلا إذا تابوا عن رضاهم بالتحكيم.

2 – تكفير الذين لا يقولون بتكفير عليّ و عثمان و معاوية و الآخرين الذين ذكرناهم.

3 – الإيمان للس عقيدة قلبية فحسب، بل إن العمل بالأوامر و ترك النواهي جزء من الإيمان، فالإيمان مركب من الاعتقاد و العمل.

4- وجوب الثورة علي الوالي و الإمام الظالم دون قيد أو ظرط يقولون ليس للقيام بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر أي

شرط، و إن من الواجب القيام بذلك دائماً و بدون استثناء[57].

لقد ظهر هولاء بهذه العقائد و اعتبروا ؟؟؟؟؟؟؟؟؟

الأرض كفاراض مخلدين في النار و أهدروا دمائهم.

[57]. (ضحي الإسلام) ج 3 ص 33 نقلاً عن كتاب (الفرق بين الفرق).

الخوارج و الخلافة

إن الفكرة الوحيدة عند الخوارج ، و التي يري المُحْدَثون اليوم أنها فكرة لامعة، هي نظريتهم في الخلافة و التي كانت ذات صبغة ديمقراطية. كانوا يقولون: إن الخلافة يجب أن تتعين في انتخابات حرة، و أجدر الناس بها من كان ذا تقوي و صلاح، سواء أكان من قريش أم يكن ، و سواء أكان من إحدي القبائل المرموقة أم يكن، سواء أكان من إحدي القبائل المرموقة أم من إحدي القبائل الضائعة ، و سواء أكان عربياً أم لم يكن.

ثم بعد انتخابه و مبايعته بالخلافة، إذا خالف مصلحة المجتمع الإسلامي فإنه يعزل عن الخلافة، و إذا رفض فلابد من مقاتلته و قتله[58].

[58]. (ضحي الإسلام) ج 3 ص 332.

إنهم في هذا يفقون في موقف التعارض مع الشيعة الذين يقولو: إن الخلافة أمر آلهي، و إن الخليفة يجب أن يعينهالله.

إنهم ... كذلك يقفون موقف المعارض لأهل السنة الذين يقولون إن الخلافة يجب أن تكون في قريش و يمسكون بمقولة: إنما الأئمة من قريش.

و الظاهر أن نظريتهم هذه في الخلافة لم يتوصلوا إليها في أول ظهورهم ، بل إن شعارهم المعروف «لا حكم إلا لله» و ما جاء في نهج البلاغة أيضاً[59] يدل علي أنهم باديء الأمر كانوا يقولون بأن الناس و المجتمع لا حاجة بهم إلي حكومة، بل علي الناس أن يعلموا وفق كتاب الله.

و لكنهم بعد ذلك رجعوا عن هذا القول و بايعوا عبدالله بن وهب الراسبي بالخلافة[60].

[59]. (نهج البلاغة) الخطبة 40 و شرح ابن أبي الحديد ، ج 2 ص 38.
[60]. (الكامل) لابي الأثير، ج 3، 336.

الخوارج و الخلفاء

كان الخوارج يعتبرون خلافة أبي بكر و عمر صحيحتين بالنظر لكونهما قد اخيرا بالانتخاب الحر، و لأنهما لم يخرجا عن المحجة الصالحة و لم يرتكبا ما يخالف الشيعة. كما أنهم كانوا يرون صحة خلافة عثمان و علي، و لكنهم يقولون : إن عثمان قد حاد عن المسير الصحيح في أواخر السنة السادسة من خلافته و تغاضي عن مصالح المسلمين ، لذلك كان معزولاً عن الخلافة، و بما أنه استمر في الكم فقد كفر و وجب قتله . أما عليّ ، فبقبوله التحكيم بغير أن يتوب بعد ذلك فقد كفر أيضاً و وجب قتله. و لهذا فقد كانوا يتبرأون من خلافة عثمان منذ سنته السابعة ، و من خلافة علي بعد قبوله التحكيم[61].

كذلك ... كانوا علي خلاف مع الخلفاء الأخرين و كانوا دائماً في حرب معهم.

[61]. (الملل و النحل) للشهرستاني.

انقراض الخوارج

لقد ظهرت هذه الجماعة في أواخر العقد الرابع من القرن الأول الهجري علي أثر خطأ خطير، و لم يدم أمرهم أكثر من قرن و نصف، فنتيجة لتهورهم و جرأتهم الجنونية أثاروا عليهم الخلفاء فتعقبهم هؤلاء حتي أبادوهم و أبادوا مذهبهم معهم و انقرضوا نهائياً في أوائل تأسيس الدولة العباسية.

إن منطقهم الجاف العديم الروح، و جفاف سلوكهم و فظاظته، و بعده عن الحياة ... و أخيراً فإن تهورهم الذي ألغي حتي «التقية» بمفهومها الصحيح المنطقي ، أدي إلي زوالهم.

لم تكن مدرسة الخوارج مدرسة قادرة علي البقاء فعلاً، و لكنها أبقت أثرها ، فقد نفذت أفكار الخوارج و عقائدهم في مختلف الفرق الإسلامية، فنحن ما زلنا نري حتي الآن (نهروانيين) كثيرين لا يقلون خطراً علي الإسلام و معاداة له من

الداخل عما كانوا عليه في زمان عليّ، بمثل ما أن هناك الكثيرين من أمثال معاوية و عمرو بن العاص كانوا موجودين و ما زالوا ، و هم يستغلون (النهروانيين) – اعداءهم – في الوقت المناسب.

أشعار أم روح

إن البحث في الخوارج و أفكارهم باعتبارهم يمثلون فرقة – دينية - لا طائل تحته ، لأن مذهبهم لم يعد له وجود اليوم. إلا أن دراستهم و دراسة أعمالهم لا تخلو من نفع يعود علينا و علي مجتمعنا ، إذ أن مذهبهم و إن يكن قد انقرض إلا أن روحه طلت باقية و حلت في الكثرين منا.

هنا لابد لنا من مقدمة قصيرة:

بعض المذاهب يمكن أن يموت من حيث كونه شعاراً، و لكن روحه تظل حبة، كما أن العكس ممكن أيضاً ، فقد يبقي مسلك من حيث كونه شعاراً، حياً ، و تموت روحه. و لهذا يمكن أن يتبع فرد أو أفراد – من حيث الشعار – مذهباً من المذاهب، و من حيث الروح لا تبعون ذلك المذهب. و قد يكون العكس ، فبعضهم قد يتبعون روحياً مذهباً من المذاهب،

مع أنهم يرفضون شعاراته.

فنحن جميعا نعلم – مثلا – ان المسلمين افترقوا فرقتين بعد رحيل رسول الله (ص): السنة و الشيعة، أولئك ينطوون ضمن إطار عقيدة معينة، و هؤلاء ينطوون ضمن إطار عقيدة معينة أخري.

يقول الشيعة: إن الخليفة بعد النبي (ص) مباشرة هو عليّ بن أبي طالب، لأنه (ص) قد عيّنه خليفة بعده بأمر من الله سبحانه و تعالي. أي إن ذلك المنصب حق خاص له بعد النبي (ص).

و السنة يقولون: إن الإسلام في تعاليمه لم يقل بشيء خاص فيما يتعلق بالخلافة و الإمامة، بل عهد إلي الناس أنفسهم بأمر اختيار أميرهم و قائدهم ، و إنه – في الأكثر – يجب أن يكون من قريش.

إن الشيعة يوجهون الانتقاد إلي عدد من أصحاب رسول الله (ص) و الشخصيات المعروفة ، بينما يقف السنة – في هذا – في النقطة المقابلة للشيعة تماماً، فهم يحسنون الظن بكل من اتصف بصفة (الصحابي) بصورة مفرطة. يقولون : إن الصحابة جميعاً عادلون صادقون. التشيع يبني علي النقد و البحث و الاعتراض و (استخراج الشعرة من العجين).

و التسنن يبني علي الحمل علي الصحة و التسويغ و (إن شاء الله كانت قطة).

في هذا العصر و الزمان الذي نعيش فيه، هل يكفي أن يقول أحد: إن علياً هو خليفة رسول الله مباشرة ، حتي نعتبره شيعياً بغير أن ننتظر منه أي شيء آخر، و مهما تكن روحيته و طراز تفكيره؟

و لكننا إذا رجعنا إلي صدر الإسلام نجد روحية خاصة هي روحية التشيع ، تلك الروحية التي كانت هي وحدها القادرة علي قبول وصية رسول الله (ص) بشأن علي قبولاً كاملاً من دون أن تصاب إرادتها بالشك و التردد.

و في النقطة المقابلة لتلك الروحية و ذلك الطراز من التفكبر كانت تقف روحية أخري و طراز آخر من التفكير كان يغمض عينيه عن وصية رسول الله (ص) بمختلف التفسيرات و التأويلات ، علي الرغم من الإيمان الكامل به (ص).

إن نشأة هذا الانشعاب الإسلامي كان سببها – في الحقيقة – أن فريقاً من المسلمين – و كانوا الأكثرية – لم تنظر إلا إلي الظاهر، إذ أن بصرها لم يكن حديداً و عميقاً بما يكفي للوصول إلي لاطن الأمور و رؤية كل الوقائع . كانوا يرون الظاهر و يحملون الأمور علي الصحة في كل الحالات ، فيقولون : إن

عدداً من كبار الصحابة و الشيوخ الذين لهم سابقة في الإسلام قد سساروا في طريق لا يمكن أن تقول عنه إنه ليس هو الطريق الصحيح.

أما الفريق الآخر، و هم الأقلية، فكانوا يقولون : إن الشخصيات تحوز علي احترامنا و تقديرنا ما التزمت الحق و احترمته. فإذا رأينا أن هؤلاء الشيوخ الذين لهم سابقة في الإسلام هم ال ذين يدوسون بأقدامهم علي الأصول الإسلامية، فإنهم يفقدون احترامنا، لأننا وراء الأصول لا الشخصيات . و هذه هي الروح التي ولد بها التشيع.

إننا عندما نتابع في التأريخ الأسلامي سلمان الفارسي و أباذر الغفاري و مقداد الكندي و عمار بن ياسر و أمثالهم نريد أن نري ما الذي حملهم علي التحلق حول علي و ترك الأكثرية.

إننا نري أنهم أناس أصوليون و عارفون بها، متدينون و عارفون بالدين. كانوا يقولون: إننا ينبغي ألا نستسلم في أفكارنا و إدراكنا للآخرين لكيلا نخطيء إذا ما أخطأوا. لقد كانت روحيتهم 0 في الواقع – روحية تتحكم فيها الأصول و الحقائق ، لا الأشخاص و الشخصيات.

كان أحد أصحاب الامام عليّ قد انتابه الشك في حرب

الجمل . كان ينظر إلي الطرفين، ففي طرف يري عليّاً و معه كبار رجال الإسلام يضربون بسيوفهم في ركابه. و في الطرف الآخر كان يري زوجة النبي (ص) التي قال الله فيها و في زوجات النبي آأخريات (و أزْواجُهُ أُمَّهاتُكُمْ)[62] و ير في ركابها طلحة، من طلائع المسلمين و من أقدمهم سابقة في الإسلام، و من أمهر الرماة، قدّم خدمات جليل للإسلام.

و يري الزبير ، أسبق من طلحة إسلاماً، ذلك الرجل الذي كان مع علي يوم السقيفة.

كان الرجل يزداد حيرة كلما أمعن في الفكر. ما جلية الأمر يا تري؟ فعليّ و طلحة و الزبير من طلائع الإسلام و المضخين في سبيله ، و من أقوي حصونه المدافعة عنه. و لكنهم الآن يواجه بعضهم بعضاً، فأيهم أقرب إلي الحق؟ ما الذي ينبغي له في مثل هذا الحال؟

لا شك أننا لا يجوز لنا أن نلوم هذا علي حيرته تلك و تردده ، فلعلنا لو كنا في ظروف مماثلة لتأثرنا بشخصيتني طلحة و الزبير و ما ضيهما المجيد.

و لكننا اليوم إذ نري علياً و عماراً و أويساً القرني و غيرهم إلي جانب، و نري عائشة و الزبير و طلحة يواجهونهم في طرف

[62]. سورة الأحزاب، الآية 6.

آخر ، لا ينتابنا الشك و التردد في القول بأن هذا الطرف الثاني هو الذي يبدو عليه سيماء الجرم، أي إن آثار الجريمة و الخيانة بادية في وجوههم، فبالنظر إلي وجوههم و ملامحهم كان الرائي لا يخطيء في الحكم عليهم بأنهم من أهل النار.

أما لو كنا نعيش في ذلك الزمان و نري سوابقهم قريبة منا، فلعله لم يكن من المستعبد أن نقع في تردد مماثل.

إننا اليوم إذ نعرف أن الطرف الأول كان علي حق و الطرف الثاني علي باطل، فلأننا بعد مضي الزمن ، و اتضاح الحقائق، و معرفة عليّ و عمار من جهة و طلحة و الزبير و عائشة من جهة أخري استطعنا أن ندرك كنه الأمور و أن نقضي بالحق أو اننا اذا لم نكن من أهل الدرس والتحقيق ، فإننا – في الدقل 0 قد لُقنّا بذلك منذ طفولتنا. أما و التحقيق ، فإننا – في الأقل قد لُقنّا بذلك منذ طفولتنا. أما في حينه، فإن هذين العاملين لم يكن لهما وجود.

علي كل حال، جاء هذا الرجل إلي أمير المؤمنين و قال له: «أيمكن أن يجنمع زبير و طلحة و عائشة علي باطل؟» إن شخصيات من كبار صحابة رسول الله (ص) كيف يمكن أن يخطئوا و يسيروا في طريق الباطل؟

أما جواب علي (ع) فيصفه الدكتور طه حسين،

الأديب و الكاتب المصري، بقوله: إنه قول لا أحكم منه و لا أرفع. فمنذ أن انطفأ الوحي و انقطع نداء السماء لم يسمع كلام عظيم كهذا[63].

قال علي:

«إنك لملبوس عليك. إن الحق و الباطل لا يعرفان بأقدار الرجال. اعرف الحق تعرف أهله ، و اعرف الباطل تعرف أهله».

فليس صحيحاً أن تتخذ من بعض الناس مقاييس لك، ثم تروح تقيس الحق و الباطن عليهم ، فتقول : إن العمل الفلاني حق لأن فلاناً و فلاناً وافقوه ، و إن العمل الفلاني باطل لأن فلاناً و فلاناً خالفوه... كلا، لا يجوز أن يجعل الأشخاص معايير للحق و الباطل. بل إن الحق و الباطل هما اللذان يجب أن يقاس عليمها الأشخاص. نعم، عليك أن تكون عارفاًبالحق و الباطل، لا بالأشخاص و الشخصيات، فتقيس الأفراد – سواء أكانوا كباراً أم صغاراً – وفق مقاييس الحق ، فإن انطبقت عليهم تقبلتهم . و عندئذ لا يمكن أن يقال : هل إن عائشة و طلحة و الزبير علي باطل؟

[63]. (علي وبنوه) ص 40.

هنا جعل عليّ الحق نفسه مقياساً للحق، و ذلكم هو روح التشيع و لا شيء غيره و ففرقة الشيعة – في الواقع – قد ولدت من نظرة خاصة تعطي الأهمية للأصول الإسلامية لا للأفراد و الأشخاص. و لهذا كان و لهذا كان لابد أن يتربي الشيعة الأوائل أناساً يحطمون الأصنام.

كان علي فتي في الثالثة و الثلاثين من عمره عند فواة رسول الله (ص)، لا يتبعه إلا قلة يعدون علي أصابع اليدين ، و في قباله شيوخ في الستين مع الكثرة الكاثرة. كان منطق هذه الأكثرية هو أن هذا هو طريق المشايخ أو المشايخ لا يخطئون ، و إننا لعلي أثرهم سائرون. أما الأقلية فكان منطقها يقول: إن ما لا يخطيء هو الحق، و علي المشايخ أن يدوروا حينما دار الحق.

من هذا يتضح أن الذين يتخذون شعار التشيع شعاراً لهم ، و لكن روحهم ليست روح التشيع ، هم كثرة كثيرة.

إن طريق التشيع – مثل روحه – طريق تمييز الحق و اتبّآعه. و ان هم أهم آثار ذلك هو الجذب و الدفع – لاكل جذب و لا كل دفع ، فقد قلنا من قبل : إن بعض الجذب يكون جذب الباطل و الجرم و المجرم، و بعض الدفع يكون دفع الحق و الفضائل الإنسانية – إنما نقصد جذباً و دفعاً علي

شاكلة ما لعلّي (ع)، فالشيعة تعني نسخة مطابقة لسيرة علي (ع). فعلي الشيعة أن يكونوا مثل علي – أيضاً – يمتلكون قوتي الجذب و الدفع.

كانت هذه المتقدمة لازمة لتبيان أن من الممكن أن يموت مذهب من المذاهب، و لكن تبقي روحه حية في أناس أخرين هم بحسب الظاهر ليسوا من أتباع ذلك المذهب، بل قد يعتبرون أنفسهم من مخالفيه. إن مذهب الخوارج ميت اليوم. أي لا توجد علي وجه الأرض – اليوم – فرقة دينية تطلق علي نفسها اسم الخوارج و يتبعها عدد من الناس.

و لكن هل ماتت روح هذا المذهب أيضاً؟

ألم تحل هذه الروح في أتباع مذاهب أخري؟

أليس فينا – مثلاً، و العياذ بالله – جمع من ذوي الجمود الديني حلت فيهم تلك الروح؟

هذا موضوع يلزمه بحث خاص به، فقد نستطيع أن نرد علي هذا السؤال إن عرفنا مذهب الخوارج جيداً، و ما قيمة البحث في الخوارج إلا من هذا الباب. علينا أن نعرف لماذا «دفعهم» عليّ عنه، أي لماذا لم تجذبهم قوة جاذبة عليّ، بل علي العكس من ذلك، طردتهم قوة دافعته؟

إن الذي لا شك فيه – كما سنعرف ذلك قريباً – هو أن ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ روحيتهم لم تكن كلها من تلك كلها من تلك العناصر التي تؤثر فيها قوة دافعة عليّ، فقد كان فيها الكثير من العناصر المتميزة النيرة التي لو لا اقترانها بعدد من النقاط المظلمة لوقعت تحت تأثير قوة جاذبة عليّ حتماً. و لكن الجوانب المظلمة في روحهم كانت من الكثرة و الاتساع بحيث أنها وضعتهم في صف أعداء علي (ع).

الخوارج و ديمقراطية علي

لقد عامل علي الخورج بمنتهي الحرية و الديمقراطية. لقد كان خليفة و كانوا من رعاياه ، فكان قادراً علي أن ينفذ بحقهم ما كانوا يستحقونه . و لكنه لم يسجنهم و لم يجلدهم ، بل إنه لم يقطع حتي نصيبهم من بيت المال، و كان ينظر إليهم نظرته إلي الآخرين.

ليس في هذا ما يدعو إلي العجب في سيرة حياة عليّ، إلا أنك قلما تجد نظيراً له في تاريخ العالم.

لقد كانوا أحراراً في الإعلام عن عقيدتهم أني شاءوا.

و كان الإمام عليّ و أصحابه يقابلونهم بمعتقداتهم بكل حرية، و يجادلونهم فيها و يتبادلون الأدلة و الاستدلال.

لعل هذا القدر من الحرية لم يسبق له وجود في العالم. فما من حكومة عاملت معارضيها بهذا القدر من

الديمقراطية. لقد كانوا يأتون إلي المسجد و يقطعون علي علي خطيته كان علي يوماً علي المنبر، فجاءه رجل يسأل سؤالاً، فرد عليه عليّ الجواب فوراً. فصاح أحد الخوارج من الحاضرين : «قاتله الله ، ما أفقهه!» فأراد الأخرون أن يلقوا عليه درساً في الأدب، فمنعهم علي قائلاً: اتركوه ، إنه إنما شتمني أنا.

لم يكن الخوارج يأتمون بعلي في الصلاة، لآنهم كانوا يقولون بكفره ، و إنما كانوا يحضرون إلي المسجد و لا يصلون خلفه، و كانوا أحياناً يؤذونه . كان علي يوماً يصلي و قد ائتم به الناس. فقرأ أحد الخوارج - و هو ابن الكواء – بأعلي صوته:

(وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ)[64].

كان ابن الكواء يريد بذلك أن يذكر عليا بأننا نعرف سوابقك في الإسلام ، فقد كنت أول من أسلم ، و قد آخي الرسول بينه و بينك، و ضحيت بنفسك في ليلة المبيت إذ نمت في فراش النبي و عرضت نفسك للسيوف المشرعة، ولسنا ننكر خدماتك للإسلام ، و لكن الله قال لرسوله أيضاً:

[64]. سورة الزمر، الآية 65.

إنك لو أشركت لحبطت أعمالك ، و بما أنك قد كفرت فقد أهدرت أعمالك تلك كلها.

فما الذي فعله علي بازاء ذلك؟ ما أن ارتفع صوت الرجل بتلاوة القرآن حتي سكت علي حتي انتهي الرجل، فاستأنف عليّ الصلاة، فعاد ابن الكواء يكرر الآية ، فسكت علي ثانية. كان علي يسكت لأنه حكم القرآن الذي يقول:

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا)[65].

و لهذا ينبغي علي المأمومين السكوت عندما يتلو الإمام القرآن.

و إذا تكرر هذا من ابن الكواء ، بقصد الإخلال بالصلاة، تلا الإمام هذه الآية:

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ)[66]. فسكت ابن الكواء و لم يعد[67].

[65]. سورة الأعراف، الآية 204.
[66]. سورة الروم ، الآية 60.
[67]. ابن ابي الحديد ، 290 ص 311.

قيام الخوارج و طغيانهم

اكتفي الخوارج في أوائل أمرهم بمجرد النقد و الجدل الحر، و كان علي يقابلهم – كما قلنا – دون أن يتعرض لهم بسوء، و لم يقطع مرتباتهم من بيت المال. و لكنهم بعد أن يئسوا شيئاً فشيئاً من توبة علي ... بدلوا أسلوبهم و عزموا علي الثورة. اجتمعوا في دار أحدهم حيث هطب فيهم صاحب الدار خطبة مثيرة، و دعا أصحابه إلي الثورة باسم الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر. و قد جاء في خطابه.

«أما بعد، فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن و ينيبون إلي حكم القرآن ، أن تكون هذه الدنيا آثر هم عندهم من الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و القول بالحق و إن مُنَّ و ضُرَّ، فإنه من يمن و يضر هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوان الله و الخلود في جناته، فأخرجوا بنا – إخواننا – من هذه القرية الظالم أهلها إلي كور الجبال أو إلي بعض هذه المدائن

منكرين لهذه البدع المضلة[68].

فزاد باقواله هذه من أؤار هيجانهم ، فتحركوت معلنين التمرد و الثورة ، فقطعوا الطرق و اتخذوا النهب و السلب حرفة[69] كانوا يريدون بذلك إضعاف الحكم و إسقاطه.

ها هنا لم يبق موضع للتعاضي و إطلاق الحرية، لأن المسألة لم تعد مسألة إظهار العقيدة، بل أصبحت إخلالاً بأمن المجتمع و تمرداً مسلحاً علي حكومة شرعية. لذلك فقد تعقبهم علي و لحق بهم عند شاطيء النهروان، فخطب فيهم و نصحهم و ألقي عليهم الحجة، ثم أعطي راية الأمان بيد أبي أيوب الأنصاري و قال: من استظلل بالراية كان في أمان ، فرجع من الإثني عشر ألفاً ثمانية آلاف، و ركب الباقون رؤوسهم عناداً، فهزموا شر هزيمة و لم يبق منهم سوي عدد معدود.

[68]. (الإمامة و السياسة) ص 141 – 143. (الكامل) للمبرد ، ج 2.
[69]. (الإمامة و السياسة) ص 141 – 143. (الكامل) للمبرد ، ج 2.

سِمات الخوارج

روحية الخوارج روحية خاصة. كانوا مزيجاً من القبح و الجمال، و بلغ جماع أمرهم أنهم وقفوا في صفوف أعداء علي، فكان أن شخصية علي (دفعتهم) و لم (تجذبهم).

إننا هنا نذكر الجانب الإيجابي الجميل عندهم، كما نذكر جانبهم السلبي القبيح الذي جعل من روحيتهم في المجموع روحية خطرة ، بل مرعبة.

1 – الروحية المناضلة المضحية التي كانت تحملهم علي الدفاع عن عقائدهم بكل شدة و صرامة. إننا نجد في تاريخ الخوارج حوادث من التضحية و الفداء قل نظيرها في تأريخ البشر. و قد ربتهم روح التضحية و نكران الذات علي الشجاعة و الجرأة.

يقول عنهم إبن عبد ربه:

«و ليس في الفرق كلها أشد بصائر من الخوارج ، و لا أشد اجتهاداً، و لا أوطن أنفساً علي الموت. منهم الذي طعن، فأنفذه الرمح، فجعل يسعي إلي قاتله و يقول: و عجلت إليك رب لترضي.»[70]

أرسل معاوية شخصاً كان ابنه من الخوارج ليعيد هذا الابن إليه، فلم يستطع الأب إرجاع ابنه عن عزمه. و أخيراً قال له : أي بني، سأذهب لآتي لك بوليدك الصغير لعل حنان الأبوة بعبدك اليه فقال الابن : و الله إني لأشوق إلي الضربة الشديدة مني إلي ولدي[71].

2 – كان الخوارج من المتعبدين المتنسكين، يمضون الليل في العبادة، لاتستميلهم الدنيا بزخارفها. عندما أرسل عليّ بن عباس يوم النهروان ليبذل لهم النصح، عاد ابن عباس و وصفهم بقوله :

«لهم جباة قرحة لطول السجود، و أيد كثفنات الإبل، عليهم قمص مرحضة و هم مشمرون»[72].

[70]. (فجر الإسلام) ص 263 نقلاً عن (العقد الفريد).
[71]. (فجر الإسلام) ص 243.
[72]. (العقد الفريد) ج 2 ص 389.

كان الخوارج متمسكين بأحكام الإسلام و ظواهره أشد التمسك، يبتعدون عن كل ما كانوا يورنه أثماً. كانت لهم معاييرهم الخاصة التي كانت تمنعهم من اقترب أي مخالفة، و كانوا ينفرون ممن يرتكب خطيئة. قتل زياد ابن أبيه أحد الخوارج ، ثم استجوب خادمه عنه، فقال: ما قدمت له طعاماً في النهار و لا فرشت له فراشاً في الليل ، فقد كان صائماً نهاره و قائماً بالعبادة ليله[73].

كل من خطوة من خطواتهم كانت تنبع من العقيدة، و كانوا ملتزمين في جميع أفعالهم ، و كانوا يسعون في نشر عقائدهم.

و لقد أوصي بهم علي (ع) فقال:

«لا تقتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطاه كمن طلب الباطل فأدركه»[74].

أي إنهم يختلفون عن معاوية و صحبه، فالخوارج سعوا للوصول إلي الحق و لكنهم أخطأوا الطريق إليه، و لكن الآخرين كانوا منذ البداية مخادعين ، و يسيرون في طريق

[73]. (الكامل) للمبرد، ج 2 ص 116.
[74]. نهج البلاغة ، الخطبة 6.

الباطل. لذلك فقتلكم الخوارج ينفع معاوية و هو أسوأ من هؤلاء و أخطر.

قبل أن نواصل القول في سائر سمات الخوارج ، و ما دمنا في معرض الحديث عن زهدهم و تقواهم و تقدسهم ، لا بد من الإشارة إلي أن واحداً من جلائل أعمال الإمام علي و من أعجبها و أبرزها في تاريخ حياته هو جرأته البالغة و شجاعته في كونه قد انبري لمحارية هؤلاء المتدينين الذين غلب عليهم الجفاف و التحجر و الجمود الفكري و الغرور.

لقد شهر علي سيفه بوجه جماعة ير الناس عليهم علائم الصلاح و ملامح التقوي و التزهد بادية، خلقة ثيابهم، يقضون أوقاتهم متعبدين.

فلو كنا نحن من أصحاب عليّ، و رأيناه يشهر السلاح عليهم، لكانت مشاعرنا تثور ، و لكنا نقف بوجهه معترضين ، و لفعله منكرين.

إن من بين الدروس القيمة حقاً في تاريخ التشيع خصوصاً، و في عالم الإسلام عموماً، هو قصة الخوارج هذه.

لقد كان عليّ يدرك كل الإدراك أهمية عمله ذاك و عظمه ، و في ذلك يقول:

«فأنا فقأت عين الفتنة و لم يكن ليجتريء عليها أحد غيري، بعد أن ماج غيهبها و اشتد كلبها»[75].

إن لعليّ في هذا القول تعبيرين عجبيين:

الأول هو (غيهب الفتنة) أي ظلامها و شمولها و إثارتها للشك، فقد كان ظاهر الخوارج علي درجة من القدسية و التقوي بحيث أنه كان يثير شك كل مؤمن نافذ الإيمان في صحة ما يقوم به علي ، فكان هذا يخلق جواً من الغموض و الظلام و الشيبهة و التردد.

أما تعبيره الثاني فهو قوله بما في تلك الفتنة من كَلَب (بالتحريك)... و الكَلَب هو الجنون المرضي الذي يصيب بعض الكلاب فتعض من تصادفه فتنقل إليه (مركوب) ذلك المرض المعدي. ففي عضة الكلب يسري الميكروب من لعابه إلي دم الإنسان أو الحيوان ، فلا يلبث المعضوض حتي يصاب بدآء جنون الكب نفسه ، و يهاجم الآخرين و يعضهم ، ناقلاً المرض إليهم أيضاً. فإذا العقلاء لا يترددون في قتل الكلب المسعور ليجنبوا الآخرين خطرة.

[75]. (نهج البلاغه) الخطبة 92.

هكذا يصفهم الإمام علي (ع) . إنهم كانوا كالكلاب المسعورة التي لا ينفع فيها دواء، فكانوا لا يفتاول ؟؟؟؟ و ينشورن البلاء فيزداد عدد المسعورين.

الويل للمجتمع الإسلامي إذا ظهر بينهم متدينون جافون جامدون جهلة لا يحيدون عن سبيلهم ، فيندفعون يعضون هذا و ذاك. فأي قدرة تستطيع أن تقف في وجوه هذه الأعافي التي لا ينفع فيها سحر و لا حيلة؟

ما تلك الروح القوية الواثقة التي لا يصبيبها الارتجاف أمام كل ذلك الزهد و التقوي؟ و أي يد لا ترتعش و هي ترفع الشيف لتنزله علي هامات هؤلاء؟

و لهذا يقول علي : «و لم يكن ليجترييء عليها أحد غيري». إن أحدا من المسلمين المؤمنين بالله و رسوله و المعاد لم يكن ليجزأ علي أن يشهر السيف في وجه هؤلاء، عدا عليّ ببصيرته النافذة و إيمانه المكين.

إن أمثال هؤلاء إنما يجرؤ علي قتلهم الذين لا يعتقدون بالله و بالإسلام ، لا المؤمنون الملتزمون من سائر الناس.

لذلك فإن عليّاً يفتخر بفعلته العظيمة قائلاً : «فأنا فقأت عين الفتنة» و درأت عن المسلمين خطراً عظيماً كان قادماً إليهم مع هؤلاء المتدينين المتحجرين . فلا جباههم

المتقرحة من أثر السجود؛ و لا ملابسهم الرثة و زهدهم، و لا ألسنتهم الدائمة الذكر لله، و لا حتي إيمانهم الراسخ و ثباتهم ، لم تستطع أن تغيم علي بصيرتي. فأنا وحدي الذي أركت أني تركت هؤلاء يوطدون أقدامهم فإنهم سيصيبون الآخرين يدائهم ، و يجرون عالم الإسلام إلي التمسك بالظواهر و القشور و بالجمود الفكري و التحجر العقلي، حتي يقصموا ظهر الإسلام . ألم يقل رسول الله (ص): «اثنان قصما ظهري: متهتك و جاهل متنسك».

عليّ يريد أن يقول: لو لم أقم أنا بمحاربة الخوارج في دنيا الإسلام، لما تجرأ أحد بعدي علي القيام بذلك، إذ ما كان أحد غيري يستطيع أن يري فريقاً من الناس ثفنت جباهم من كثرة السجود ، و سلكوا مسالك المتديني، و هم في الوقت نفسه سر في طريق الإسلام... أناساً يحسبون أنهم يعملون في سبيل الإسلام ، و لكنهم في الواقع من أعداء الإسلام، ثم ينهض لمحاربتهم و يريق دماءهم .. أنا فعلت هذا.

لقد مهد عليّ بعلمه ذاك الطريق أمام الخلفاء و الحكام من بعده، فأقدموا علي محاربتهم و إراقة دمائهم ، بغير أن يعترض الجنود علي ذلك، علي اعتبار أن عليّاً قد فعل ذلك

من قبل.

إن سيرة عليّ – في الحقيقة قد فتحت الطريق للآخرين لكي يتمكنوا من مجالدة أناس ظاهري الصلاح و التقوي، و لكنهم في الواقع حمقي جامدون.

3 – كان الخوارج جهلة، فكان من تأثير جهلهم ذاك أنهم لم يكونوا يدركون حقائق الأمور و يسيؤون التفسير. و من تشكل اعوجاج الفهم عندهم بالتدريج بصورة مذهب ديني، بحيث أنهم لم يبخلوا بأعظم التضحيات في سبيل تثبته. و في البداية أظهروا تمسكهم بالفريضة الإسلامية (النهي عن المنكر) كأنهم فريق لا هدف لهم سوي إحياء تلك الفريضة الإسلامية.

هنا ينبغي علينا أن نتريث قبلاً لنمعن النظر ملياً في جزء من التأريخ الإسلام.

عندما نرجع إلي السيرة النبوية نري أن رسول الله (ص) خلال فترة بقائه في مكة مدة ثلاث عشر سنة لم يجز لأحد الجهاد،و لا حتي الدفاع، بحيث أن المسلمين أحسوا بالضيق من ذلك، و هاجر جمع منهم إلي الحبشة بإذن من رسول الله (ص)، و لكن الآخرين مكثوا و تحملوا العذاب حتي وافت السنة الثانية من الهجرة إلي المدينة، فأجاز

رسول الله (ص) الجهاد.

خلال فترة مكة تلقي المسلمون التعاليم، و تعرفوا علي روح الإسلام ، فنفذت الثقافة الإسلامية إلي أعماقهم فكانت النتيجة أنهم عند دخولهم المدينة كان كل منهم داعية من دعاة الإسلام الصادقين ، فكان النبي (ص) يرسلهم إلي الأطراف و الأكناف فيؤدون واجبهم علي خير وجه، و إذا ما اشتركوا في الجهاد انوا يعلمون ما هي الأهداف و المثل التي يحاربون من أجلها، فكانوا ، كما قال عنهم علي (ع):

«و حملوا بصائرهم علي أسفياهم»[76].

إن تلك السيوف المسقاة ، و أولئك النفر المتعلمون ، هم الذين استطاعوا أن يؤدوا رسالة الإسلام . عندما نقرأالتاريخ و نستمع إلي أقوال اولئك الذين لم يكونوا إلي ما قبل ذلك بسنوات يعرفون شيئاً غير السيف و البعير، فإننا ليأخذنا العجب و تنتابنا الحيرة لدي اصطدامنا بثقافتهم الإسلامية و علو تفكيرهم.

من المؤسف أنه في عهد الخلفاء كان الاهتمام منصباً – أكثر – علي الفتوحات ، غافلين عن أن عليهم – بموازاة

[76]. (نهج البلاغه) الخطبة 148.

فتحهتم أبواب الأسلام بوجوه الآخرين و استقبالهم في الإسلام ممن كان يجذبهم التوحيد في الإسلام و العدل و المساواة بين العرب و العجم – أن يعلموهم الثقافة الإسلامية لكي يتعرف الناس علي روح الإسلام عن كثب.

كان الخوارج من العرب في الغالب و فيهم أفراد قالئل من غير العرب. و لكنهم جميعاً، بعربهم و غير عربهم، كانوا يجهلون الثقافة الإسلامية ، و كانوا كمن يريد أن يستعيض عما فيه من منقصة بالتشدد في الركوع و السجود و الإطالة فيهما. و بهذا يصفهم علي (ع) فيقول:

«جُفاةَ طَغامٌ و عبيدٌ أقزامُ. جُمّعُؤا من كل أوب و تُلُقّطُوا من كل شوب، ممن ينبغي أن يُفَقَّهَ و يؤَدَّب و يُعَلَّم و يُدَرَّبَ و يُوَلّي عليه و يُؤْخذ علي يديه. ليسوا من المهاجرين و الأنصار الذين تبوأوا الدار».[77]

إن ظهور طبقة من المتدينني الجهلة، الذين كان الخوارج جزءاً منهم، قد كلف الإسلام غالياً. فبعض النظر عن الخوارج الذين كانوا – مع كل عيوبهم – يتحلون بالفضيلة و الشجاعة و التضحية، ظهر من هؤلاء فريق من المتنسكين الذين خلوا حتي من تلك الفضائل ، فأخذوا

[77]. (نهج البلاغة) الخطبة 236.

يجرون الإسلام نحو الرهبانية و الإنزواء ، و رجوا سوق التظاهر و الرياء. و لما كان هؤلاء تعوزهم تلك الشجاعة التي تدفع بهم إلي إشهار السيف علي دصحاب السلطة، سلّوا سيف اللسان علي أرباب الفضيلة، فراحوا يلصقون تهمة الكفر و الفسق و اللادينية بكل صاحب فضيلة.

علي كل حال، فإن من أبرز سمات الخوارج هو الجهل. من جملة جهلهم عدم التفكيك بين ظاهر القرآن و باطنه، أي بين خط القرآن و جلده و بين معناه . و لهذا انخدعوا بحلية معاوية و عمرو بن العاص الواضحة.

لقد امتزجت (الجهالة و العبادة) في هؤلاء . فكان علي يريد أن يحارب جهالتهم، و لكن لم يكن بالإمكان فصل جانب الزهد و التقوي و العبادة في هؤلاء عن جانب الجهل فيهم. بل إن عبادتهم كانت هلي الجهالة بعينها. فقد كانت العبادة المصحوبة بالجهالة، في نظر عليّ العالم بالإسلام علماً من الطراز الأول، لا قيمة لها، لذلك فقد ضربهم ، و لم تستطيع ملامح الزهد و التقوي و العبادة فيهم أن تمنع عنهم علياً.

إن خطر جهل أمثال هؤلاء الأفراد و الجماعات أكثر من مجرد الوقوع كالآت ليد الأذكياء الذين يريدونهم حجر عثرة

في طريق المصالح الإسلامية العليا. إن المنافقين الذين لا دين لهم يسعون دائماً لاستثارة المتدينين الحمقي ضد المصالح الإسلامية، فيصبحون سيوفاً بأيديهم و سهاماً في أقواسهم.

و ما أدق الوصف الذي يصف به علي (ع) هذه الحالة فيهم إذ يقول:

«ثم أنتم شرار الناس و من رمي به الشسطان مراميه و ضرب به تيهه»[78].

قلنا: إن الخوارج بدأوا بهدف إحياء سنة إسلامية ، إلا أن جهلهم و عدم تبصرهم أوصلهم إلي ما وصلوا إليه ، فأخطأوا في تفسير القرآن ، فأي هذا إلي تفردهم في مذهب معين و إلي سلوكهم مسلكاً خاصاً. لقد جاء في القرآن:

(إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ)[79].

(الحكم) في هذه الآية لله، و لكن لابد من معرفة ما هو المراد بالحكم.

[78]. (نهج البلاغة) الخطبة 125.
[79]. سورة الانعام، الآية 57.

لا شك أن المراد بالحكم هنا هو القوانين و الأنظمة التي تحكم حياة البشر. هذه الآية لا تعطي حق وضع القوانين لأحد سوي الله ، فذلك من الشؤون الخاصة بذات الله (أو بمن يمنحه الله صلاحيته).

و لكن الخوارج اعتبروا الحكم بمعني الحكومة و الحَكَمية، و صنعوا في ذلك شعاراًلهو و قالوا : ال حكم إلا لله.قاصدين بذلك إلي القول بأن الحكومة و الحكمية و القيادة لله وحده، كما أن وحده حق وضع الأحكام و القوانين ، و أن ليس لأحد غير الله أن ينصب نفسه حكماً أو حاكماً بين الناس، مثلما ليس لأحد غير الله أن يسن قانوناً.

لذلك كانوا اذا أول الإمام علياً واقفا يصلي أو خطيبا علي المنبر ، نادوا بأعلي أصواتهم : لا حكم إلا لله ، لا لك و لأصحاب يا علي.

فكان يرد عليهم بقوله:

«كلمة حق يراد بها باطل. نعم إنه لا حكم إلا لله، و لكن هؤلاء يقولون لا أمرة إلا لله. و أنه لابد للناس من أمير بر أو فاجر، يعمل في إمرته المؤمن ، و يستمتع فيها الكافر، و يبلّغ الله فيها الأجل ، و يُجمع به الفيء ، و يُقاتل به العدو، و تأمن به السبيل، و يؤخذ به للضعيف من

القوي، حتي يسترتيح بر و يستراح من فارج»[80].

أي إن القانون لا يجري بنفسه ، بل لابد من فرد أو جماعة تقوم بإجرائه و تنفيذه.

4 – كان الخوارج أناساً قيصري النظر ضيقيه، يدور فكرهم في أفق دون.كانوا يحصرون الإسلام و المسلمين في إطار ضيق محدود من الأفكار. كانوا – مثل غيرهم من قيصري النظر – يزعمون أن الجميع لا يفهمون . جيداً ، أولاً يفهمون إطلاقاً، و أنهم قد تنجبوا طريق الصواب فأصبحوا جميعاً من أهل النار.

إن أول ما يفعله قيصرو النظر كهؤلاءهو أنهم يصبغون ضيق نظرهم هذا بصغة العقيدة الدينية، و يحددون رحمة الله، و يجلسون الله علي كرسي الغضب دائماً و كأنه ينتظر من عباده أتفه زلة ليعذبهم عذاباً أبدياً.

إن واحداً من أصول عقائد الخوارج هو أن مرتكب الكبيرة – كالكذب و الغيبة و شرب الخمر- كالكذب و الغيبة و شرب الخمر – كافر و خارج عن الإسلام و يستحق الخلود في النار. و عليه فإن جميع الناس – عدا نفر منهم – مخلدون في نار جهنم.

إن ضيق النظرة الدينية من سمات الخوارج ، و لكننا

[80]. نهج البلاغة الخطبة 40.

اليوم نصادف هذه السمة في المجتمع الإسلامي علي الرغم من النقراض الخوارج. و هذا هو الذي قصدنا إليه بقولنا: إن الخوارج قد مات شعارهم، إلا أن روح مذهبهم ما يزال حياً إلي حد ما بين بعض الناس و الطبقات.

إننا نري بعضاً من ذوي الأدمغة الجافة يعتبرون جميع الناس – باستثناء أنفسهم و نفر معدود منهم – من الكفار و الملحدين ، و يحددون دائره الإسلام و المسلمين بأضيق الحدود.

قلنا في الفصل السابق: إن الخوارج كانوا يجهلون روح الثقافة الإسلامية. و لكنهم كانوا يتصفون بالجرأة. و قد أدي بهم جهلهم ذاك إلي أن يكونوا ضيقي النظر، و هذه بدوره حملهم علي التسرسع في تكفير الناس و تفسيقهم بحيث أنهم حصروا الإسلام بأنفسهم فقط، و اعتبروا سائر المسلمين ، الذين لم يكونوا يرتضون عقائدهم – كفاراً. و كان كن جزأتهم أنهم كانوا يقصدون أرباب السلطة لكي يأمروهم بالمعروف و ينهونهم عن المنكر ، معرضين أنفسهم للقتل.

ثم قلنا: إن جمودهم الفكري و تنسكهم و تقدسهم و ضيق نظرتهم بقي بعدهم إرثاً للآخرين بغير أن يبقي معه شيء من جرأتهم و شجاعتهم و تضحياتهم.

فكان أن ظهر الخوارج الجبناء، أي أولئك المتقدسون الذين تركوا السوف في أغمادها، و تخلوا عن فكرة تقصد رجال السلطة للأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لأنها كانت خطراً عليهم، و لكنهم راحوا يسلقون رجال الفضل و ألفضيلة بألسنة حداد، فألقصوا بكل صاحب تهمةمن التهم، بحيث أننا قلنا نجد أحد الفضلاء في تاريخ الإسلام ممن لم يتخذه هؤلاء الخوارج هدفاً لسهام اتهاماتهم: فهذا ينكر وجود الله ، و ذاك ينكر المعاد، و اخر ينكر المعراج الجسماني، و الرابع صوفي، و الخامس كذا ... إلخ....

و لو أننا أخذنا بأقوال هؤلاء لما وجدنا بين أظهرنا أي عالم إسلامي حقيقي، فعندنا يكفرون عليّاً فاقرأ علي الآخرين السلام، فابن سينا، و الخواجه نصيرالدين الطوسي، و صدر المتألهين الشيرازي، و فيض الكاشاني، و السيد جمال الدين الأسد آبادي، و حتي إقبال الباكستاني، هم ممن تجرعوا جرعة من كأس هؤلاء.

و في هذا يقول ابن سينا ما ترجمته:

تكفير شخص مثلي ليس سهلاً جزافاً

فلا إيمان أقوي من إيماني

أنا نسيج وحدي في الدهر، فإن أكن كافراً

فما عاد في الدهر مسلم أبداً

و يقول نصير الدين الطوسي الذي كفره عالم اسمه (نظام العلماء) ما ترجمته:

(لئن كفرني نظام بلا نظام

فإن سراج الكذب لا ضياء له)

و لكني سوف أدعوه مسلماً

لأن جواب الكذب كذب مثله)

علي كل حال، لقد كان من سمات الخوارج البارزة ضيق أفقهم و قصر نظرهم ، مما دعاهم إلي الحكم علي الآخرين بالكفر و الإلحاد.

لقد فند الإمام علي (ع) مزاعمهم هذه، و قال: إن النبي (ص) كان يقيم الحد علي المذنب ثم صلي علي جنازته ، فلو كان مرتكب الكبيرة كافراً لما صلي النبي (ص) علي جنزته ، لأن الصلاة علي جنازة الكافر غير جائزة و قد نهي القرآن عن ذلك:

(وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ)[81].

«و قد علمتم أن رسول الله (ص) رجم الزاني ثم صلي

81

عليه ثم ورثه أهله. و قتل القاتل و ورث ميراثه أهله. و قطع ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ألفي، و نكحاء المسلمات، فأخذهم رسول الله (ص) بذنوبهم ، و أقام حق الله فيهم، و لم يمنعهم سهمهم من الإسلام، و لم يخرج أسماءهم من بين أهله».[82]

يقول: لنفرض أنني قد أخطات فكفرت ، فلماذا تكفرون جميع المسلمين؟ إذا ضل أحد و خطأ فهل ينسحب ذلك علي الآخرين فيدخلهم في زمرة الضالين المخطئين الذين يستحقون العقاب؟ لماذا تسلطون سيوفكم علي رقاب المذنبين – علي حد زعمكم – و غير المذنبين معاً؟

إن الإمام يأخذ عليهم وجهين من وجوه النقد، فتدفعهم دافعته عنه من إتجاهين:

الأول: إنهم يحملون البريء ذنب المجرم و يعاقبونه علي ذلك.

و الثاني: إنهم يكفرون من يرتكب ذنباً و يخرجونه من إسلامه، فيضيقون بذلك دائرة الإسلام بحيث أن من يضع قدمه خارج عدد من التعاليم فقد خرج عن الإسلام.

[82]. نهج البلاغة الخطبة 125.

بدين الإمام عليّ فيهم ضيق الأفق و قصر النظر. و الواقع أن حرب عليّ علي الخوارج لم تكن حرباً علي أفراد ، بل كانت حرباً علي طراز خاص من التفكير، إذ لو لم يفكر أولئك الأفراد علي هذه الشاكلة لما عاملهم علي تلك المعاملة. إنه قتلهم ليقتل أفكارهم، و لكي يفهم القرآن علي حقيقته، و لكي يري المسلمون الإسلام و القرآن كما هما وكما يريده لهما واضع قوانينهما.

إن قصر نظرهم و اعوعاج تفكيرهم هما اللذان سهلا لخدعة رفع المصاحف أن تنطلي عليهم، و خلقوا من أنفسهم أعظم خطر علي الإسلام، إذ منعوا علياً من أن يستأصل جذور النفاق إلي الأبد بالقضاء علي معاوية و أفكاره قضاء مبرماً، فكان ما كان بعد ذلك من الأحداث الفاجعة التي انصبت علي المجتمع الإسلامي[83].

[83]. إن أهم الأحداث الفاجعة التي حلت بالمسلمين علي أثر ذلك هي الضربات الروحية و المعنوية نزلت بالمسلمين. لقد أقام القرآن الدعوة للإسلام علي التبصر و التفكير ، و هو الذي فتح باب الاجتهاد و الادراك العقلي للناس: (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين) (9: 122) إن الإدراك البسيط لأمر من الأمور لا يسمي (تفقهاً) هو الإدراك بإعمال التفكير و التعمق و التبصر: =

=(ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً)(8:29) (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) (29 : 69) في مقابل هذا الأسلوب في التعاليم القرآنية التي كانت تريد أن يظل الفقه الإسلامي دائم الحركة و الحياة، اختار الخوارج الجمود و الركود ، فحسبوا المعارف الإسلامية ميتة راكدة، و أدخلوا في الإسلام الصورة و الظاهر.

إن الإسلام لم يعن بالشكل و الصورة و الظاهر في الحياة أبداً، بل كان عنايته تتجه نحو الروح و المعني، و هو طريق يوصل إلي تلك الاهداف و المعاني. إن الإسلام يضع رسم المعاني و الأهداف و طريقة الوصول إليها ضمن إطار حكمه، و يترك الإنسان حراً فيما عدا ذلك. فيتجنب بذلك كل تصادم مع انتشار الثقافة و التمدن.

اننا لا نجد في الاسلام وسيلة مادية و شكلاً ظاهرياً له صبغة من (التقديس) بحيث يجد المسلم نفسه ملزماً بالتمسك بذلك الشكل و الظاهر ... لذلك ، فإن تجنب التعارض مع ظاهر التوسع العلمي و الحضاري يعتبر واحداً من الأمور التي تجعل من السهل اليسير انطباق هذا الدين علي مقتضيات الزمان، و تزيل أكبر مانع يحول دون خلوده مدي الدهر.

هذا هو نفسه التمازج بين التعقل و التدين ، فهو من جانب يحافظ علي تثبيت الأصول و تمكينها، و هو من جانب أخر يفصلها عن الشكل، و يعطي الكليات التي قد تكون لها مظاهر متعددة، إلا أن تلك المظاهر لا تغير من الحقيقة شيئاً. بيد أن تطبيق الحقيقة علي المظاهر و المصاديق ليس أمراً سهلاًيقدر عليه كل من هل ودب، بل هو يتطلب إدراكاً عميقاً و فهماً سليماً. أما الخوارج فقد كانوا من ذوي الأفكار الجامدة، و ما كان لهم عون علي إدراك ما وراء يسمعون =

= لذلك عندما أرسل علي (ع) ابن عباس ليحاججهم ، أوصاه قائلاً:
«لا تخاصمهم بالقرآن، فإن القرآن حمال ذو وجوه ، تقول و يقولون: و لكن حاججهم بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً».
أي أن القرآن يعني بالكليات ، فهم في مقام الاحتجاج قد يستشهدون بآية يعتبرونها مصداقاً لما يقولون ، و نستدل أنت بآية اخري دليلاً علي ما تقول، و هذا ما لا يؤدي إلي النتيجة المطلوبة من الجدب، فهم لا يمكلون دلك القدر من الإدراك الذي يمكنهم من استخلاص شيء من حقائق القرآن و تطبيقها علي مصاديقها الحقيقية الصحيحة. بل كلمهم حسبما جاء في السنة لانها تشمل الأجزاء و هي صريحة في مصاديقها.
و هذه إشارة من الإمام (ع) إلي جمود الخوارج و جفاف عقولهم مع تدينهم، الأمر الذي يشير إلي إمكان إنفصال التعقل عن التدين.
إن الجهالة و الجمود الفكري هما اللذان أنجبا بالخوارج، فككانوا خلواً من القدرة علي التحليل و علي فصل الفكر عن المصداق.
ظنوا أنه إذا أخطأ التحكيم مرة فإن أساسه باطل و غير صحيح ، مع أنه من الممكن أن يكون ذلك الأساس ثابتاً و صحيحاً، و أن الخطا قد وقع في التطبيق . لذلك فإننا نلاحظ في قضية التحكيم مراحل ثلاثاً:
1 – يشهد التاأريخ أن علياً لم يرض بالتحكيم، فقد أدرك أن عرض معاوية و أصحابه إنما هو (مكيدة) و (غدر) و قد آصر علي رأيه هذا.
2 – كان يقول إنه إذا كان لابد من تشكيل لجنة للتحكيم، فإن أبا موسي رجل ضعيف الحيلة و التدبير و لا يصلح لهذا الأمر، فلابد من اختيار الرجل الصالح ، و قد رسح للاضطلاع بالهمة أبي عباي أو مالكا الأشتر.
3 – أصل التحكيم صحيح و ليس خطأ. و هذا ما أصر عليه عليّ (ع) أيضاً.
يقول أبو العباس المبرد في (الكامل في اللغة و الأدب) ج 2 ص 134 ما خلاصته :=

=لقد جادل عليّ (ع) الخوارج بنفسه ، و حلقهم أنه كان هو أشدهم معارضة للتحكم ، فأيدوا قوله.
فقل لهم: ألم تحملوني علي القبول؟ فقالوا : اللهم بلي.
فقال: لماذا إذن تخالفوني؟ فقالوا: لقد اقترفنا ذنباً عظيماً لابد من التوبة«فتبنا» فتب أنت أيضاً.
فقال : أستغفرالله من كل ذنب. فعاد الجمع و هم ستة آلاف نفر، و قالوا : لقد تاب علي، و ها نحن نتنظر أمره بالتحرك نحو الشام.
فجاءه أشعث بن قيس و قال: يقول الناس: أنك تري التحكيم ضلالاً و التزامه كفراض. فقام الإمام و صعد المنبر و قال: من يظنني رجعت عن التحكيم فقد أخطأ الظن، و من يراه ضلالاً فهو أضل سبيلا. فقام الخوارج و غادروا المسجد و ثاروا علي عليّ عليه السلام.
يقول الإمام علي (ع) : ان هذا التحكيم كان خطأ لأن معاوية و اصحابه كانوا يريدون المكر و التوسل بالحيلة، و لأن أبا موسي لم يكن علي قدر المهمة ، و قلت لكم هذا منذ البداية فرفضتم. إلا أن هذا لا يعني أن التحكيم إجراء باطل.

لم يكن الخوارج يعترفون بوجود فرق بين حكومة القرار و حكومة الأفراد . إن قبول حكومة القرآن يعني اتباع ما يقول به القرآن في ما يحدث من حوادث. إلا أن قبول حكومة الأفراد يعني اتباع آراء أولئك الافراد و أحكامهم و نظرياتهم . و بما ان القرآن لا يتكام، فلابد من اتنباط حقائقه لإعمال النظر و الفكر، و هذا ما لا يكون إلا عن طريق الأفراد. و في هذا يقول الإمام علي (ع) نفسه:
«انا لم نحكم الرجال و إنما حكمنا القرآن ، و هذا القرآن انما هو خط مسطور بين الدفنين، لا ينطق بلسان و لابد له من ترجمان ، و إنما ينطق عنه الرجال.=

=و لما دعانا القوم إلي أن نحكّم بيننا القرآن لم نكن الفريق المتولي عن كتاب الله. و قد قال سبحانه : (فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلي الله و الرسول) فرده إلي الله إن نحكم بكتابه ، و رده الي الرسول ان نأخذ بسنته. فإذا حكم بالصدق في كتاب الله فنحن أحق الناس به. و إن حكم بسنة رسول الله فنحن أولي بهم». (نهج البلاغة: الخطبة 123)

هنا يتبادر للذهن تساؤل . فحسب اعتقاد الشيعة و برأي الإمام نفسه (نهج البلاغة: آخر الخطبة 2) تكون الإمامة و يكون الحكم في الإسلام أمراً انتصابياً و بموجب النص. فلماذا خضع الإمام للتحيكم، و من ثم راح يدافع عنه بشدة؟

إن الجواب علي هذا التساؤل يتبين واضحاً في هذا الذي سبق من خطبة الإمام (ع): فإذا حكم بالصدق في كتاب الله فنحن أحق الناس به ، و إذا حكم بسنة رسول الله فنحن أولاهم به.

الفرق الإسلامية و تأثر بعضها في بعض

تنفعها دراسة أحوال الخوارج في معرفة مدي الأثر الذي خلفوه في التأريخ الإسلامي من حيث السياسة و العقيدة و الذوق و الفقه و سائر الأحكام.

إن مختلف الفرق و النحل – و إن تكن منفصلة عن بعض من حيث الشعارات – قد تتأثر أحياناً بروح المذاهب الأخري و تحل فيها روح مذهب من المذاهب، فتتقبل الفرقة روح ذلك المذهب و معناه؛ علي الرغم من أنها تخالفه ، فالسرقة في طبيعة الإنسان.

فقد نجد مثلاً رجلاً سني المذهب شيعياً في روحه و مفاهيمه. و قد نجد العكس أيضاً. فيكون الشخص بطبيعته متديناً و ظاهرياً و لكنه صوفي في روحه، و قد يكون العكس. فمن الممكن أن يكون بعض الناس من الشيعة في الشعار و الانتحال، و من الخوارج في الروح و العمل. و هذا يصدق علي الأفراد كما =

=يصدق علي الأمم و الملل.
إذا تجاوزت النحل و تعاشرت تبادلت العقائد و الأذواق، و إن تباعدت في شعاراتها. من ذلك مثلاً سريان عادة (التطبير) – أي ضرب الرؤوس بالسيوف و القامات – و ضرب الطبول و النفخ في الأبواق من المسيحيين الأرثوذوكس القفقازيين إلي ايران و النتشرت فيها انتشار النار في الهشيم، بسبب استعداد النفوس و الروحيات لتقبلها.
لذلك ينبغي أن نتعرف علي روحيات مختلف الفرق. فقد تكون فرقة وليدة حسن الظن ، فيلزم أن تتبع معهم قول القائل «ضع فعل أخيك علي أحسنه» كأهل السنة الذين يحسنون الظن بالأشخاص، فهم لابد أن ينتقدوا فرقة وليدة منظور خاص و تولي اهتماماً كبيراً للأصول الإسلامية، لا بالأفراد أو الأشخاص ، كالشيعة في الصدر الأول من الإسلام. و ثمة فرقة تعني بالباطن و التأويل الباطني كالمتصوفة، و فرقة أخري وليدة التعصب و الجمود الفكري كالخوارج.
فإذا عرفنا روحية كل فرقة و حوادثها التاريخية الأولي، كان حكمنا أصدق في ماهية العقائد و الأفكار التي تسربت من فرقة إلي أخري خلال القرون، وعلي الرغم من الاحتفاظ بشعاراتها الخاصة، تقلبت روحية الفرق الأخري.
إن العقائد و الأكفار أشبه – في هذا الباب – باللغات التي تسري من لغة إلي أخري بغير أن يعتمد أحد ذلك، كلاذي حصل بعد أن فتح العرب المسلمون إيران ، فدخلت كلمات الفارسية إلي اللغة العربية، كذلك اللغة التركية علي هده المتوكل و الأترك السلاجقة و المغول و غيرها من اللغات . و هكذا كان تنافذ الأذواق و الميول.
إن أسلوب تفكير الخوارج و عقليتهم – الجمود الفكري و فصلهم التعقل عن =

=التدين – اندس في المجتمع الإسلامي بمختلف الصور علي امتداد تاريخ الإسلام . و علي الرغم من أن الفرق الأخري كانت تتعقد أنها تخالف الخوارج، إلا أننا نجد أن روحية هؤلاء قد وضعت بصمتها علي طراز تفكيرهم، و ما هذا سوي الذي قلناه عن طبيعة اللصوصية في الإنسان و التي ساعد علي تفشيها التجاور و المخالطة.

لقد كان من سلوك المتأثرين بالخوارج أنهم حملوا شعار متاوءة كل شيء جديد و ما زالوا كذلك. بل إنهم يصبغون وسائل الحياة المادية و الأشكال الظاهرية – التي قلنا أنها لا قدسية لها في الإسلام – بصبغة قدسية، و يعتبرون الاستفادة من كل جديد كفراً وزندقة.

إننا نعثر بين المدارس الفكرية و العقائدية و العلمية و الإسلامية و الفقهية علي مدارس هي وليدة الروح القائلة بفصل التعقل عن التدين ، و هي مدارس يتجلي فيها فكر الخوارج بكل وضوح، فتطرد كل فطرة عن اعتماد العقل للكشف عن الحقائق و وضع القوانين الفرعية ، و تقول: إن اتباع هذا الأسلوب بدعة و خروج عن الدين ، مع أن القرآن نفسه يحث الإنسان في كثير من آياته علي التعقل و ير في التبصر سنداً للدعوة الإلهية.

إن المعتزلة الذين ظهروا في أوائل القرن الثاني الهجري، نشأوأ علي دثر البحث و التعمق في تفسير معني الكفر و الإيمان، و هل أن ارتكاب الكبيرة يوجب الفر أم لا. وكان ظهورهم شديد الأرتباط بظهور الخوارج من قبل. كان المعتزلة جماعة تريد أن تفكر بحريه و إيجاد حياة عقلية. و علي الرغم أنهم كانوا يفتقرون إلي المباديء العلمية و أصولها، فأنهم أخضعوا المسائل الإسلامية إلي قدر من الحرية في الدرس و التمحيص ، فراحوا يفندون بعض الأحاديث ، و لا يقلبون إلا الأراء و النظريات التي تحققوا منها و اجتهدوا فيها.

لقد واجه هؤلاء منذ البداية المعارضة و المقاومة من لدن أهل الحديث و متبعي=

=الظاهر الذين كانوا يرون ظاهر الحديث هو المعول عليه، بغض النظر عن معني الحديث و القرآن و روحمها ، و لو يكونوا يعترفون بأية قيمة لحكم العقل الصريح، بل كل القيمة التي كانوا يقولون بها للعقل إنما كان ينحصر في قيمته لتوكيد الظاهر.
خلال قرن و نصف من حياة مدرسة المعتزلة العقلية كانوا في إسار تذبذبات عجيبة، إلي أن ظهر الأشاعرة الذين أنكروا كليا قيمة الأفكار العقلية و االمحضة و المقولات الفلسفية الخالصة. قالوا: إن من المفروض علي المسلمين أن يتعبدوا علي وفق ما جءهم في ظاهر الأحاديث المنقولة، بغير أن يتعمقوا في التفكير في المعاني أو تدبرها، و كل تساؤل و إخذ ورد بدعة.
كان الإمام أحمد بن حنبل، أحد أئمة أهل السنة الأربعة، يخالف أسلوب تفكير المعتزلة أشد المخالفة، بحيث أنه سجن و جلد من جراء ذلك، و لكنه لم ينثن عن مخالفته لهم.
و في النهاية انتصر الأشاعرة و طوي بساط التفيكر العقلي، و كان هذا الانتصار ضربة شديدة و جهت إلي الحياة العقلية في الأسلام.
كان الأشاعرة يعتبرون المعتزلة من أصحاب البدع. يقول أحد شعرائهم بهد انتصارهم علي المعتزلة:

ذهبت دولة أصحاب البدع
و وهي حبلهم ثم انقطع
و تداعي بانصراف جمعهم
حزب إبليس الذي كان جمع
هل لهم يا قوم في بدعتهم
من فقيه أو إمام يتبع؟

(«المعتزلة » زهري جار الله،ص 185)=

لم يكن الخوارج يرون سائر المسلمين مسلمين بسبب قصر نظرهم، فحرموا ذبائحهم، و أهدروا دماءهم، و لم يتزاوجوا معهم.[91]

= و الأخباريون أيضاً، و هم أصحاب مدرسة فقهية شيعية بلغوا أوج ازدهارهم في القرنين الحادي عشر و الثاني عشر الهجريين، كانوا قريبين من الظاهريين و أهل الحديث من أهل السنة، و من حيث السلوك الفقهي فكلتا المدرستين تسلكان سلوكاً واحداً، و إنما يقتصر اختلافهما علي الأحاديث التي يجب أن تتبع ، فكلتاهما تدينان بانفصال التعقل عن التدين.

لقدا عطل الأخباريون عمل العقل تعطيلاً تاماً، و اسقطوا الإدراك العقلي من كل قيمة في استخراج الأحكام الإسلامية من النصوص، و اعتبروا اتابع العقل ظاهر الحديث.

إننا لسنا الأب بصدد بحث أساليب الفكر الإسلامي و تتبع المدارس التي تتبع الخوارج في الفصل بين العقل و التدين، لأنه بحث واسع متشعب. و إنما كل ما نرمي إليه هنا هو الإشارة الي تأثير الفرق بعضها في بعض، و تبيان أن مهب الخوارج الذي لم يدم طويلاً قد بقيت بصماته خلال القرون و لاعصور الإسلامية حتي الوقت الحاضر الذي نري فيه عدداً من الكتاب و المفكرين المعاصرين في دنيا الإسلام يتبنون أسلوب تفكيرهم بعد تحدثيه و ربطه بالفلسفة الحسية الحديثة.

سياسة رفع المصاحف

إن سياسة (رفع القرآن علي الرماح) ما زالت رائجة بين المسلمين منذ ثلاثة عشر قرناً. و علي ما زالت رائجة بين المسلمين منذ ثلاثة عشر قرناً. و علي الأخص كلما كثر المتقدسون و المتظاهرون و راجت سوق التظاهر بالزهد و التقوي، و كثر من ناحية أخري المستفيدون من سياسة رفع المصاحف.

فالدروس التي يجب أن نستخلصها من ذلك هي:

أ – الدروس الأول هو أنه حينما يعتبر الناس الجهال و المغفلين أنهم هم الذين يمثلون التدين والتقوي، و يتخذونهم نماذج للإسلام فعلاً، يصبح هؤلاء أداة طيعة بيد الأذكياء النفعيين، فيتخذونهم سداً منيعاً ضد المصلحين الحقيقيين و أفكارهم.

و كثيراً ما لوحظ أن العناصر المناوئة للإسلام تستعل هذه الأداة، أي إنها توجه قدرة الإسلام نفسه ضد الإسلام..

إن الاستعمار الغربي جرب هذه الوسيلة مرات عديدة، و ما يزال يستعلها لتحريك أحاسسيس الكاذبة لغرض إيجاد التفرقة بين المسلمين لمصلحته الخاصة.

ما أشده مدعاة للعار أن ينبري مسلم مخلص لطرد الأجانب، مثلاً و التخلص من نفوذهم ، فيقوم أولئك الذين يريد إنقاذهم باختلاق الذرائع و الحجج الدينية لوضع سد قوي أمامه!.... نعم، إذا كان سواد الناس جاهلاً و غافلاً، فإن المنافقين يستغلون خنادق الإسلام نفسها لمحاربة الإسلام.

ففي إيراننا هذه حيث يفتخر الناس بمحبة آل البيت الأطهار، يقوم المنافقون باستغلال اسم أهل البيت المقدس، و يتخذون من (الولاء لآل البيت) المقدس خندقاً يحاربون منه القرآن و الإسلام و آل البيت لمصلحته اليهود الغاصبين. و هذا أفظع أنوان الظلم بحق الإسلام و القرآن و النبي الكريم و أهل بيته الكرام.

قال رسول الله (ص):

«إني ما أخاف علي أمتي الفقر، و لكن أخاف عليهم سوء التدبير».

ب – الدرس الثاني هو أن علينا أن نسعي لكي تكون استنباطاتنا من القرآن صحيحة. فالقرآن لايكون هادياً و مرشداً

إلا إذا صح تدبره، و صدق تفسيره، و استرشد بهداية آل القرآن الراسخين في علوم القرآن. فما لم يكن أسلوب استنباطنا من القرآن صحيحاً، وما لم نتعلم طريقة الاستفادة من القرآن، لا يمكن أن ننتفع به. إن النفعيين أو الجهال قد يقرأون القرآن و لكنهم يسيرون ورا الاحتمال الباطل. لقد سمعتم قول (نهج البلاغة) في أن كلمتهم (كلمة حق أريد بها باطل) فهذا ليس إحياء للقرآن و عملاً به، بل هو إماتة القرآن. إن العمل بالقرآن لا يكون إلا عندمانفهمه فهماً صحيحاً.

إن القرآن يعرض الأمور عرضاً كلياً و مبدئياً، و لكن الاستنباط و تطبيق الكلي علي الجزئي لا يكون إلا يفهمنا إياه فهماً صحيحاً. فمثلاً، لم يذكر في القرآن أن الحرب الفلانية التي سوف تقع بين علي و معاوية يكون الحق فيها مع عليّ. إن كل ما جاء في القرآن هو:

(و ان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احداهما علي الأخري فقاتلوا التي تبغي حتي تفيء إلي أمر الله)[92].

هذا هو القرآن و أسلوب بيان القرآن. إنه لا يقول :إن

[92]. سورة الحجرات ، الآية 9.

الحق مع فلان في الحرب الفلانية، و إن فلاناً علي باطل. إن القرآن لا يذكر الأسماء و الأفراد. إنه لا يقول بعد أربعين سنة أو أكثر أو أقل سوف يظهر رجل اسمه معاوية و يحارب عليا، فعليكم أن تحاربوا مع علي. إن القرآن لا يدخل في التفاصيل و لا يعدد الحوادث و لا يضع إصبعه علي الحق و الباطل.

ليس هذا بالإمكان ، فقد جاء القرآن ليبقي دائماً و أبداً، فليس عليه إلا أن سن الأصول و الكليات بحيث أنه كلما تقابل حق و باطل في أي عصر من العصور استطاع الناس أن يعملوا – وفق مقاييس تلك الكليات و الأصول – أن الأمر يعود إلي الناس لكي يفتحوا عيونهم ليروا ما ينبغي أن يفعلوه وفق مبدأ (و ان طائفتان اقتتلوا...) فيميزوا الفرقة الباغية من غير الباغية، و إذا ما فاءت الباغية إلي أمر الله قبلوا منها ذلك، و إذا ركبت رأسها و تحاليت لإنقاذ نفسها من السقوط لكي تتحين فرصة أخري للهجوم و تبغي مرة أخري، و تتظاهر بقبول القول (فإ فاءت فأصلحوا بينها) فلا تتخذعوا بمكرهاً.

إن التعرف علي كل هذا يعود إلي الناس أنفسهم. إن القرآن يريد للمسلمين الرشد العقلي و الاجتماعي ، لكي يستطيعوا أن يميزوا بين رجل الحق و رجل الباطل. إن القرآن لم يأت لكي يبقي دائماً بالنسبة للناس كولي علي القاصرين

فيعاملهم كما يعامل الولي الصغير القاصر، فيدبر أموره الصغيرة ضمن قيموميته، و يعين له ما يفعل في كل حالة من الحالات.

إن معرفة الأشخاص و درجة صلاحيتهم و لياقتهم و مدي تمسكهم بالإسلام و لابحقائق الإسلامية إنما هي – من حيث المبدأ – واجب، و لكننا غالباً مانغفل عن هذا الواجل الخطير.

يقول علي (ع):

«إنكم لن تعرفوا الرسد حتي تعرفوا الذي تركه»[93]. أي إن معرفة الأصول و الكليات لا تنفع وحدها حتي تطبق علي مصاديقها و مفرادتها، إذ يمكن بالخطأ في معرفة الأشخاص و بعدم إدراك الموقف أن تعلموا باسم الحق و باسم الإسلام و تحت الشعارات الإسلامية، ما هو ضد الإسلام، و ما هو – في الحقيقة – لمصلحة الباطل.

لقد ذكر القرآن الظلم و الظالم و العدل و الحق، و لكن ينبغي معرفة مصاديقها بحيث لا نري الظلم عدلاً، و العدل ظلماً، و من ثم نقضي علي العدالة و الحق و نحن نحسب أننا نطبق الكليات بحكم القرآن.

[93]. (نهج البلاغة) الخطبة 147.

ضرورة محاربة النفاق

إن من أشق الأمور محاربة النفاق، لأننا في الحقيقة نحارب الأذكياء الذين يستغليون أولئك الحمقي. إن هذه الحرب أصعب من محاربة الكفر أضعافاً، لأن محاربة الكفر حرب مكسوفة و ظاهرة لاخفاء فيها، أما الحرب مع النفاق فإنها حرب مع الكفر المستور.

إن للنفاق وجهين، وجه ظاهر هو الإسلام ، و وجه باطن هو الكفر. إن معرفة ذلك من أشق الأمور علي عامة الناس، و قد لا يكون ممكناً لهم ، و لذلك فإن الكفاح ضد النافق كثيراً ما يؤول إلي الإخفاق، لأن العامة لا يتعدي شعاع إدراكهم الظاهر، فلا يضيء الباطن الخفي لأنه ليس بعيد الغور و لا ينفذ إلي الأعماق.

يقول الإمام علي (ع) في رسالته إلي محمد أبي بكر:

(و لقد قال لي رسول الله : إني لا أخاف علي أمتي مؤمناً و لا مشركاً. اما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه ، و اما المشرك فيقمعه الله بشركه، و لكني أخاف عليكم كل منافق الجنان عالم اللسان ، يقول ما يعرفون و يعمل ما تنكرون»[94].

هنا يعلن رسول الله (ص) يعلن الخطر من جهة النفاق و امنافقين ، و ذلك لأن عامة أفراد الأمة غافلون و تخدعهم الظواهر[95].

[94]. (نهج البلاغة)الرسالة 27.

[95]. لهذا نجد علي امتداد التاريخ الإسلامي أنه كلما قام مصلح يعمل لأصلاح حالة الناس الجتماعية و الدينية، معرضاً منافع المستغلين و الظالمين للخطر. بادر أولئك إلي ارتداء لبوس التقدس و التقوي و التدين.
إن المأمون العباسي المعروف بمجنونة و إسرافه بين رجال السلطة في التاريخ ، عندما يري أن العلويين قد نهضوا ، يرتدي جبة مرقعة و يحضر الاجتماعات بها، بحيث أن أبا حنيفة الأسكافي الذي لم يصله من المأمون دينار و لا درهم ، يثني عليه و يمتدحه علي عمله.
و قد التمس أخرون – كل بشكل من الأشكال – سياسة (رفع المصاحف) المخربة، فأفسدوا كل الأتعاب و التضحيات و خنقوا الانتفاضات في مهدها. و ما هذا سوي جهل الناس و ضلالهم لأنهم لم يستطيعوا التمييز بين الشعارات و الحقائق، و بهذا أغلقوا علي أنفسهم أبواب النهضة و الإصلاح، ثم استيقظوا بعد أن انهارت كل المقدمات و لم يكن بد من السير في الطريق من أوله.
إن من بين الأمور العظيمة التي نتعلمها من سيرة علي (ع) هو أن نضالاً من هذا القبيل لا يختص بجماعة دون أخري، بل حيثما كان المسلومن و اولئك الذين

و لابد من القول أنه كلما كثر عدد الحمقي كانت سوق النفاق أكثر رواجاً. إن المبارزة مع الأحمق مبارزة مع النفاق أيضاً، لأن الأحمق آلة بيد المنافق، إذ لا ريب في أن مكافحة الحماقة و الحمقي يعتبر تزع سلاح المنافق و تركه إعزل.[96]

=يتزبون بزي الدين، كان هؤلاء وسيلة نفوذ الأجانب و أداة تحقيق أهداف الاستعمار و التسعمرين ، و لضمان مصالحهم ينترسون بهؤلاء و يتحصنون بهم، بحيث أن النضال ضد المستعمرين غير ممكن إلا بالقضاء علي تلك التروس و الحصون. فيجب أولاً مكافحة تلك التروس و القضاء عليها لإزالة العقبات من طريق الهجوم علي قلب العدو.

و لعل إثارة معاوية الخوارج للإفساد و التخريب كانت نافذة ، و علي ذلك فإن معاوية، أو في الأقل ، أمثال أشعث بن قيس من العناصر المخربة و المشاغبة قد تترست منذ ذلك اليوم – أيضاً – بالخوارج.

إن تاريخ الخوارج يعلمنا أنه في كل نهضة يجب في البداية القضاء علي التروس و الحصون و محاربة الحماقات ، كما فعل (ع) بعد التحكيم ، إذ بادر إلي محاربة الخوارج أولاً، بقصد مواجهة معاوية بعد ذلك.

عليّ الإمام و القائد الحق

إن كيان علي برمته، و تاريخه و سيرته، و أخلاقه، و صبغة و ريحه، و كلماته و أقواله ، كلها دروس و تعاليم و نماذج للإقتداء و للقيادة.

وكما أن جواذب علي (ع) تعتبر دروساً تعليمية لنا، فإن قوة دفعه كذلك أيضاً. إننا في الأعية التي نتلوها عند زيارة مرقد الإمام علي (ع) و سائر الأئمة الأطهار و نردد أننا نحب محبيهم و نعادي أعداءهم. إن التفسير الآخر لهذا القول بسير إلي أننا نتوجه إلي حيث مدار جوّك الجاذب،و نبتعد عن مدار قوتك الدافعة.

إن ما قلنا في المواضيع السالفة تناول جانباً من قوي الجذب و الدفع عند علي (ع) ، و قد اختصرنا الكلام علي دافعته خصوصاً، و لكن تبين مما قلناه أن علياً قد دفع

طبقتين اثنتين دفعاً شديداً:

1 – المنافقين الأذكياء.

2 – الزهاد الحمقي.

إن هذين الدرسين يكفيان مدعي التشيع ليحملاهم علي فتح أعينهم لئلا ينخذوا بالمنافقين .علي أبصارهم أن تكون حديدة فتتجاوز النظر إلي الظاهر، فمجتمع التشيع و العصر الحاضر قد ابتلي بهذين الدائين أشد ابتلاء.

و السلام علي من اتبع الهدي

الفهرس

الموضوع ..... الصفحة

تقديم 5

المقدمة.....15

قانون الجذب و الدفع.....17

الجذب و الدفع في عالم الإنسان 19

إختلاف الناس في الجذب و الدفع.....23

علي _ شخصية ذات قوتين.....35

(1) قوة جاذبة عليّ.....39

الجواذب القوية.....41

التشيع مدسة المحبة و العشق.....45

إكسير المحبة.....49

تحطيم الحدود.....55

الحب يبني أم يخرب؟.....59

الموضوع ..... الصفحة
حب الأولياء.....67
قوة الحب في المجتمع.....71
الوسيلة الفضلي لتهذيب النفس.....75
نماذج من التأريخ الإسلامي.....85
حب علي فب القرآن و السنّة.....97
سرّ حب عليّ.....105
(2) قوة دافعة عليّ.....111
علي يصنع الأعداء.....113
الناكثون و القسطون و المارقون.....117
ظهور الخوارج.....121
أصول عقائد الخوارج.....133
الخوارج و الخلافة 135
انقراض الخوارج.....139
أشعار أم روح.....141
الخوارج و يمقراطبة علي.....151
قيام الخوارج و طغيانهم.....157
سياسة رفع المصاحف.....185
ضرورة محاربة النفاق 191
علي الإمام و القائد الحق.....195

مؤسسة البعثة

مؤسسة ثقافية تعني بشؤون التأليف و التحقيق و الترجمة و الطباعة و النشر، بما يلبي حاجة القاريء المسلم أين ما وجد، لذا تنوعت منشوراتها لتشمل لغات عدة، منها: الانكليزية، الفرنسية ، الأوردية، الكردية ، و غيرها ،

و مستعدة «مؤسسة البعثة - بيروت» بتأمين طلبات دور النشر من احتاجاتهم للكتب المطبوعة في لبنا و خارجها و مستعدة أيضاً للتعاون الفعال مع كافة الفعاليات الثقافية في العالم العربي و الإسلامي ، إذ هي لبنة من تلكم اللبات التي يعول عليها المساركة الجادة في تطوير حركة الكتاب، وصولاً إلي بناء فكري متطور يبتني علي المنهج الثقافي السليم.

صدر من منشوراتنا:

1 – فاطمة الزهراء (ع) المرأة النموذجية في الإسلام	أبراهيم الأميني
2 – جولة في سيرة الأئمة (ع)	مرتضي مطهري
3 – الفطرة	مرتضي مطهري
4 – السيرة النبوية	مرتضي مطهري
5 - الإمام علي (ع) في قونيه الجاذبة و الدافعة	مرتضي مطهري
6 – الإنسان الكامل	مرتضي مطهري
7 – آية الكرسي نداء التوحيد السماوي	محمد تقي الفلسفي

و سيصدر قريباً:

- مؤلفات الخطيب. محمد تقي الفلسفي
- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل. للأستاذ ناصر مكارم الشيرازي، في عشرين جزءاً.
- موسوعة مستدركات سفينة البحار.